

المركز الوطني للترجمة  
تونس

كريستيان بلانتان

# الحجاج

ترجمة

عبد القادر المهيري

مكتبة  
الأدب  
المغربي



دار سيناترا

الحجاج



المركز الوطني للترجمة

كريستيان بلانتان

# الحجّاج

ترجمة

عبد القادر المهيري

مراجعة

عبد الله صولة

دار النشر سيناترا





بلانتان، كريستيان، الحجاج، ترجمة المهيري، عبد القادر،  
الحجم: 13.5x21 سم، عدد الصفحات: 174 صفحة، منشورات  
دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010 (سحب 2)،  
سلسلة: مقالات اللغويين.

ر.د.م.ك.: 2-26-084-9973-978

الحجاج - ترجمة - بلانتان، كريستيان - المهيري، عبد القادر -  
صولة، عبد الله.

الأفكار الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة  
عن آراء يتبناها المركز الوطني للترجمة.

Christian Plantin  
*L'argumentation*  
© Éditions du Seuil, 1996  
27, rue Jacob - Paris 75006

حقوق الترجمة العربية ونشرها وتوزيعها  
وزارة الثقافة والمحافظة على التراث

دار سيناترا

© المركز الوطني للترجمة، تونس 2008

9، نهج المنتيري - 1006 - تونس  
الهاتف: 71 567 377 (+216) الفاكس: 71 567 308 (+216)  
البريد الإلكتروني: tarjamah@cenatra.nat.tn

## مقدمة الترجمة

الحِجاج مفهوم قديم حديث، قديم قدم الفلسفة والمنطق؛ تُنسب بدايات البحث فيه عادة إلى أرسطو، لكن لا شك في أنه كان للسفسطائيين دور هام في بلورته. فهم الذين، قبل المعلم الأول، نبهوا إلى أنّ كل خطاب يقابله خطاب معاكس وأشاروا إلى أهمّية التفاعل اللغوي في العلاقات الاجتماعية. وقد تناول أرسطو مفهوم الحِجاج في كتاب الخطابة باعتبار الحِجاج مقومًا أساسيًا من مقومات الخطبة يتمثل أساسًا في الظفر بالحجة. ولذا قال: إنّ «الخطابة ملكة اكتشاف نظريّ لما يمكن أن يكون صالحاً للإقناع في كلّ حالة».

وتمثّل العبارة ركنا آخر هامًا من أركان الخطابة والجانب الذي اهتمّت به البلاغة في الثقافة العربيّة والغربيّة، وأغفلت كلّ ما يتعلّق بالحِجاج. وكما أنّ الحِجاج مرتبط في التراث اليونانيّ بالمباحث الفلسفيّة فقد عاد الاهتمام به منذ العقد السادس من القرن العشرين في إطار فلسفيّ مع ظهور كتابين أحدهما لـشايم برلمان والآخر لتولمان. ومنذ ظهور هذين الكتابين ما انفكّ الاهتمام بهذا المفهوم يتزايد والمصنّفات المتّصلة به تتكاثر مدعومة بمكتسبات العلوم الإنسانيّة المختلفة. ولم يعد النظر

مقتصرًا على مجالات معيّنة بل صارت الدراسات تتقصى مظاهر  
الحجاج في أبسط تجليات التفاعل التحادثي.

إنّ فائدة هذا الكتاب الذي ترجمناه من الفرنسية تتمثل في  
تقديمه خلاصة مبسّطة نسبيًا لما توصل إليه البحث في الحجاج.  
فبعد أن بيّن المؤلّف ما يدين به الحجاج للتراث اليوناني،  
استعرض أهمّ الدراسات التي تناوله ثمّ تناول في الفصول المتعاقبة  
مجموعة أشكال الحجاج وتقنياته وأنماطه وموارده اللغوية...  
ويمكن أن نعتبر هذا الكتاب مدخلًا لدراسة الحجاج، يساعد  
المرء على تكوين فكرة حول هذا المجال قبل أن يقبل على  
الاطلاع على المصنّفات المختصة العميقة؛ وعسى أن نكون قد  
تمكّنًا من نقله إلى العربية نقلًا أمينًا في لغة مقروءة.

ولا بدّ أن أشكر جزيل الشكر الأستاذ عبد الله صولة  
على مراجعته الجديّة لترجمتنا وعلى الملاحظات والمقترحات  
المفيدة التي مكّنتنا من حلّ بعض مشاكل الترجمة وتحسين  
صياغتها.

عبد القادر المهيري

# الفصل الأول

## ما يخين به الحجاج للفسطاطيين

### 1. الحكايات المؤسسة

#### أ. الكارثة الأصلية

لكل العلوم الإنسانيّة أساطيرها المؤسسة لها. ومن الأكيد أنّ أساطير الحجاج من أقدم الأساطير، إذ هي تعود إلى القرن الخامس ق.م. يحكى أنّ صقلية كان يحكمها طاغيتان انتزعا الأراضي [من أصحابها] لتوزيعها على جنودهما؛ ولما أطاحت سنة 467 ق.م. ثورة بالطغيان طالب المالكون باسترجاع أراضيهم المغتصبة، وأفضى ذلك إلى رفع قضايا لا نهاية لها. وهذه الظروف [حسب ما يقال] هي التي وضع فيها كوراكس (Corax) وتيزياس (Tisias) «طريقة معقلنة» للكلام أمام المحكمة، أي بعبارة أخرى الرسالة الأولى في الحجاج.

هذه الحكاية قد تكون جديرة بالتصديق خاصّة وأنها تنسب إلى الحجاج، حسب صدقة غريبة، أصلا موازيا لأصل الهندسة. وفعلا فإنّ هيرودوت (القرن الخامس ق.م.) ينسب ابتكار هذا

العلم إلى المصريين الذين كان عليهم أن يصلحوا كل سنة ما كانت تحدثه فيضانات النيل من خراب. فالأمر يبدو في كلتا الحالتين متعلقاً بمسألة حدود أزالها النهرُ هنا والطاغية هناك. فكيف تتم إقامة حدود الممتلكات من جديد؟ الجواب هندسيّ بالنسبة إلى الكوارث الطبيعيّة، حجاجيّ بالنسبة إلى الكوارث الحضاريّة. وقد احتفظت هذه المقابلة بشيء مثاليّ في ما تضعه من توزيع للمهام.

### ب. من يخسر يربح

توجد كذلك منذ البدايات مسائل أخرى مازالت تغذي التفكير في الحجاج، فبعض الأخبار تجعل من تيزياس تلميذاً لكوراكس وتزعم أنّ تيزياس قبل أن يُعلّم تيزياس فنياته وأن يكون أجره حسب ما يحصل عليه تلميذه من نتائج، ممّا يدل على مدى ثقته بنجاعة هذه الفنيات، فإذا ربح تيزياس قضيته الأولى يدفع لأستاذه أجرته، وإذا خسرها فلن يدفعها له.

ماذا فعل تيزياس بعد إنهاء تعلّمه؟ لقد رفع قضية على أستاذه يؤكد بمقتضاها أنّه لا يدين له شيء؛ وفعلاً يمكن لتيزياس إمّا أن يربح هذه القضية وإمّا أن يخسرها. فهو حسب الفرضيّة الأولى يربح القضية، وبمقتضى حكم القضاة فليس لأستاذه دين عليه؛ وحسب الفرضيّة الثانيّة فإنّه يخسرها، وبمقتضى الاتفاق الخاصّ المبرم بينه وبين أستاذه فليس عليه أيّ دين له. وفي كلتا الحالتين لا دين عليه.

ما هو جواب كوراكس؟ لقد بنى خطابه المعاكس باستعادة خطة تيزياس الحجاجيّة بصفة حرفيّة، لكن باعتمادها معكوسة. فحسب الفرضيّة الأولى يربح تيزياس القضية، وعليه

بمقتضى الاتفاق الخاص أن يدفع الأجرة. وحسب الفرضية الثانية فإنه يخسرها، وعليه بمقتضى القانون أن يدفع مقابل ما تلقاه من تعليم. فعليه في كلتا الحالتين أن يدفع الأجرة. ويمكن للهواة أن يسجلوا أن دراسات الحجاج تشارك السينما هذه المرة الصورة الأخرى للمشهد البدائي المتمثل في الراش المبتل برشه<sup>1</sup>.

ينبغي أن تُقرأ هذه النادرة حسب مستويات عدّة. يمكن الاكتفاء بالفكاهة الثقيلة الروح على غرار القضاة الذين تصدّوا لهذه القضية بضرب المتخاصمين وطردهم؛ لكننا نرى فيها بالأحرى اشتغال عملية احتجاج كبرى تتمثل في عكس الخطاب بواسطة خطاب آخر. فكل ما تحدّثه كلمات تنقضه كلمات أخرى، ونقف فيها خاصّة على التناقض الناشئ عن الالتزامات الصادرة عن عقد خاص والالتزامات المرتبطة بقرار العدالة. ومن المهامّ القارة للحجاج أن يحاول حلّ مشاكل الوضعيات التي تنطبق عليها أنساق من المعايير غير متجانسة.

## 2. حججيات «خارجة عن المعيار»

يميل الباحثون عادةً إلى ربط بدايات التفكير في الحجاج إلى أرسطو (384 - 322 ق.م.) أبي كلّ شيء؛ وقد يكون من المؤسف أن يكون ذلك على حساب السفسطائيين. لقد كان السفسطائيون (القرن الخامس وبداية القرن الرابع ق.م.) علماء أصيلين أخضعوا تصوّرات الأخلاقية والاجتماعية التي كانت

1 L'Arroseur arrosé. إشارة إلى مشهد سينمائي يرجع عهده إلى بدايات فنّ السينما ويتمثل في محاولة الشخصية المعنّية رش غيره بالماء فينقلب اتجاه الأنبوب نحوه، وهذا ما يمكن التعبير عنه بالمثل العربي: من حفر جُبّاً لأخيه وقع فيه.

سائدة في عصرهم لنقد لاذع تماما. وقد أمكن لآثارهم أن تقارن بآثار فلاسفة التنوير. والسمعة السيئة التي ظلت ملتصقة باسمهم راجعة تماما إلى التشويه الذي فرضه على تفكيرهم وممارستهم انتقادات أفلاطون (347-427 ق.م.)؛ وينبغي لكل مقارنة للحجاج السائد أن تأخذ بعين الاعتبار ما حققته السفسطائية من مكتسبات. فلنبرز منها بعض النقاط الحاسمة.

### أ. «تعارض الأصوات»

ندين للسفسطائيين بممارستهم المنتظمة لمعارضة الخطابات بعضها لبعض، وهو ما يمكن تسميته بتعارض الأصوات، إذ كل حجة يمكن أن تُعكس، وكل خطاب يجابه بخطاب معاكس ناتج عن وجهة نظر أخرى وعارض لواقع آخر، [مثاله] حادث وقع في ملعب رياضي:

سؤال: من المسؤول؟

وجهة نظر 1: المسؤول هو الذي رمى الحربة.

وجهة نظر 2: كلاً، فالمسؤول هو الضحية التي لم تحترم ما أسداه معلّم الرياضة من توصيات حول السلامة.

يعود الكلام إذ ذاك إلى الطرف 1 الذي يجب عليه أن يدحض وجهة النظر 2 وإثبات التهمة؛ ثم يعود إلى الطرف 2 ليدحض هذا الدحض ويثبت وجهة النظر 2. وفي انتظار مزيد من المعلومات فإنّ هذا الإجراء يوافق تعريفاً على جانب من الصواب لعدالة ديمقراطية.



## بـ. المفارقة

اللغة «شفافة» حسب الحس المشترك، فهي صفيحة بلّورية لا بنية لها سوى الوقائع التي تخترقها، وهي تشتغل اشتغالا حسنا بقدر ما لا تُرى. وتمثّل مزية المفارقة في أنّها تصوّر بديهيّا استقلال اشتغال اللغة بالنسبة إلى الواقع وهو ما يصدم «الحسّ السليم»:

هذا الكلب لك؛ فهو كلبك.

لهذا الكلب صغار، فهو أب.

فهو أب، وهو لك، فهو إذن أبوك.

هذا قياس مغالطيّ وسفسطة واحتجاج جديد مضحك فاقده للجديّة، ولا يزعم أن يكون جدّيّا، ولكنه يُخرج المتكلّم ذا «الحسّ السليم». كيف يمكن أن تُشتقّ نتيجة محالة من مقدّمتين (أي قضيتان تستعملان قاعدة لاحتجاج) صادقتين صدقا واضحا؟

إنّ المفارقة تُوقظ الفكر. وهذا النمط من السؤال هو أصل تفكير أرسطو حول شروط صحّة القياس. يقول المنطقيّ هنا إنّنا أمام حجاج غير صحيح وقياس مغالط سببه ما في اللغة من نقائص، وإنّه ينبغي التمييز بين الصلات الناشئة عن العلاقة بين شخصين (كون الكائن أبا) والخصائص الملازمة للكائن (كونه كلبا).

## ج - المحتمل

لقد أبرز السفسطائيون مفهوم المحتمل: فعندما يتعلّق المحتمل بأمور بشرية فإنّه يطابق عادات مجموعة ما، ويمكن هذا المفهوم من استخراج قوالب جاهزة ولكن أيضا من استخراج أنماط، ويُعلن عن ظهور تفكير علمي غير مختصّ حول سلوك الناس في المجتمع.

لكنّ الحسابات التي تأخذ بعين الاعتبار في آن واحد المحتمل وما يمكن معرفته منه تفضي إلى مفارقات من نوع جديد أبرزها السفسطائيون بطبيعة الحال:

1 - من الأرجح أن يكون القويّ هو الذي هاجم الضعيف (احتمال من مستوى أول).

2 - لكن بما أنّ الضعيف يعرف بمقتضى 1 أنّ الشكوك ستحوم حول القويّ (الذي عليه أن يتحمّل عبء إقامة الحجّة) ⇐ الفصل الثالث عشر (3)، إذن

3 - فالضعيف هو الذي هاجم القويّ (احتمال من مستوى 2).

وهكذا دواليك. فمن المحتمل الآن أنّ القويّ هو الذي هاجم الضعيف طبقا لاحتمال من مستوى ثالث.

## د - الجدلية

إنّ التفاعل الحجاجيّ يمثل كما مارسه السفسطائيون ظاهرة جدلية. لكلمة «جدلية عدّة معان، وهي تنطبق هنا، وفي الدراسات الحجاجيّة عامّة، على شكل حوار معقلن يُدار حسب

قواعد دقيقة. يواجه عارض معارضا أمام جمهور يقوم ردّ فعله بالتحكيم حول النقاش، وتتعاقب الأسئلة والأجوبة حسب نظام يُعتبر التفاعل اللغويّ عند السفسطائيين التاريخيّين الواقع الأخير الذي تتمّ فيه العلاقات الاجتماعية. ومن وجهة نظر الأفلاطونيين فإنّ خطيئة هذا التفاعل القاتلة هي في أنّه ليس بحثا عن الحقيقة وإنّما هو مباراة كلاميّة يُدحض في نهايتها أحد الأطراف. وتفيد كلمة نهاية على السواء نهاية أقواله أو نهايته باعتباره متكلمًا (الفصل الرابع، 3، د)؛ وإثر أفلاطون، فإنّ الأرسطيّة ستُقام باعتبارها نقدا للغة الطبيعيّة، نقدا ينبغي أن يُقيم حقائق علميّة تتخلّص من التباسات السفسطائيين (الفصل الخامس).



## الفصل الثاني

### دراسات الحجاج

يمكن أن تُربط دراسة الحجاج بالخطابة أو بالعلم (فقرة 1). بعد عصر النهضة لم تعد البلاغة قائمة بانتظام على الحجاج. وقد تغيرت العلاقة بين الحجاج والعلم الأرسطيّ تغييراً عميقاً مع ظهور العلوم التجريبية في نفس الفترة تقريباً في حين أنّ منطق «الحسّ المشترك» فقد نهائياً كلّ صلة بالمنطق الصرف عندما أصبح اختصاصاً رياضياً شكلياً في نهاية القرن التاسع عشر، وربّما غنم الحجاج من ذلك ضرباً من الاستقلال تجلّى في الدراسات المعاصرة التي تقدّم منها صورة في الفقرة 2.

#### 1- بين العلم والبلاغة

##### أ. الحجاج في البلاغة

تقليديّاً تُعتبر نظرية الحجاج الجزء الأساسي من النظام الخطابيّ؛ فبعد خطابة أرسطو قدّمت الخطابة الموجهة إلى هرنيموس<sup>2</sup> (القرن الأول ف. م.) عرضاً ممتازاً لهذا النظام نجد

تلخيصاً له حديثاً في عناصر من الخطابة الكلاسيكية<sup>3</sup> ل. م. باتيون M. Parillon (ناطان 1989). ينبغي التمييز بين وجهتي نظر.

يستعرض تحليل الحدث الحجاجي مختلف المراحل المؤدية إلى المنتج المنجز، أي الخطاب الموقر للحجج، ونستعمل الخطاب ههنا في المعنى التقليدي أي باعتباره مجموعاً من أعمال اللغة المخططة، المحددة الغاية، والموجهة إلى جمهور في إطار مؤسساتي محدد. تميز الخطابة القديمة بين خطاب المشاورة السياسية الجنس «المشاورى» وخطاب المحكمة (الجنس «المشاجري»)، وخطاب التفوق والشجب (مدح وذم، الجنس التثبيتي).

وستضيف المسيحية خطاب الوعظ الديني، وتضيف القرون الوسطى البعيدة الجنس التراسلي والعهد المعاصر الإشهار والإعلام الوسائطي، ويطور أيضا خطاب القرار السياسي نحو خطاب الدعاية الإيديولوجية.

تميز الخطابة القديمة بين خمس مراحل في إنتاج الخطاب القائم على الحجاج:

- المرحلة الحجاجية (الظفر بالحجة): بواسطة الفكر يتم البحث عن الحجج الوجيهة في النظر المتعلقة بقضية، وتقرح كتب الخطابة القديمة تقنيات تمكن من الفوز («ابتكار») بمثل هذه الحجج.

- المرحلة النصّية («الترتيب») وفيها تنظّم الحجاج التي تمّ الظفر بها. يُبدأ مثلاً بحجّة تكون بالأحرى ضعيفة مع الاحتفاظ لنهاية الخطاب بـ«الحجّة الدامغة» التي من شأنها أن تحمل أشدّ الحضور تردّداً على أخذ القرار.

- المرحلة اللغويّة («العبارة») حيث يُصاغ الحجاج الذي تمّ التفكير فيه في كلمات وجمل ويُوفّر لسدى الحجاج لحمته اللغويّة.

- أمّا المرحلتان الأخيرتان فهما مرحلتا «ترسيخ الخطاب في الذاكرة» وهو أمر ضروريّ بما أنّه يجب إلقاؤه على جمهور في اللحظة النهائيّة الحاسمة، لحظة «العمل»؛ فبواسطة الترسّخ في الذاكرة وبواسطة العمل يكون عمل الخطيب من جنس عمل الممثل.

- يهتمّ تحليل المنتج ببنية الخطاب كما يُلقى على الجمهور. فالخطاب القضائيّ مثلاً يبدأ من غير أن يفاجئ بمقدمة («exorde»)، ويتواصل بسرد الأحداث التي تعرض دوماً من وجهة أحد الطرفين المعنيين، وبين السرد الأحداث التي يعتمد عليها بسط الحجاج مُتمّماً بدحض مواقف الخصم؛ وينتهي الخطاب بنتيجة («خاتمة الخطبة») تُجمل النقاط الرئيسيّة. ولنلاحظ أنّه لا يوجد تعارض بين السرد والحجاج اللذين يتجهان معاً إلى نفس النتيجة حيث يتمّ إثبات موقف السارد - المحتجّ.

## ب. الحجاج العلميّ

ليست نظريّة الحجاج القديمة خطائيّة فقط؛ وينبغي أن نُنبه إلى أنّه قد تكوّن منذ البداية تصوّر للحجاج العلميّ في إطار

منطق معيّن؛ وقد وُفّر أرسطو صياغته الأولى في طويقا<sup>4</sup> ثم في التحليلات حيث عُرضت نظرية القياس العلميّ (← الفصل الخامس).

يستعمل الحجاج في اللغات الطبيعية المنطق والبلاغة معا. وتسعى النظريات الحديثة للحجاج أن تربط بين هذين الشكلين بدون جمعهما في واحد.

## 2. الدراسات المعاصرة من 1945 إلى يومنا هذا

إلى أين وصلنا بعد مضيّ خمسة وعشرين قرنا؟ لا يمكن أن نستعرض هنا تاريخ الحجاج الخطابي والعلمي؛ وليس من الثابت أن توفّر المقاربة التاريخية أحسن مدخل للأعمال المعاصرة.

إنّ دراسات الحجاج ونظرياته توفّران مشهدا متّسما بالتباين؛ وقبل أن نقدّم بعضا من المعالم الهامة لهذه الدراسات ينبغي أن نشير إلى أنّ تنوّعها يجعل مقاربتها صعبة ويحمل على الالتجاء إلى مواقف مكرّسة، ويكون تصوّر الحجاج تكرارا لأعمال كبار المؤلفين مثل برلمان في المجال الفرنكفوني. ومضرة هذه النزعة هي بقدر النزعة الحالية لمختلف «المدارس» نحو التدويل. ويمكن أن يُعتَبَر وجود جمعية دُوليّة لدراسة الحجاج<sup>5</sup> ومجلة حجاج<sup>6</sup> التي أسّست سنة 1967 ممثلا لحوارية جديدة.

Topiques 4

Société internationale pour l'étude de l'argumentation 5

Argumentation 6



ستتناول دراسات الحجاج منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية. ومن الأكيد أنّ أزمة الخطاب السياسيّ مع ظهور الأنظمة الكليانيّة والأشكال الحديثة للدعاية ساهمت مساهمة كبيرة في تجديد هذه الدراسات.

### أ. معيدو التأسيس في الخمسينات

إنّ كتاب أ.ر. كورتويس E.R. Curtuis «الأدب الأوروبي والعصر الوسيط اللاتيني»<sup>7</sup> الصادر في ألمانيا (المترجم إلى الفرنسية سنة 1956) دفع من جديد البحث حول أحد المفاهيم الأساسيّة المشتركة للحجاج، نعني مفهوم الفكرة المشتركة أو الموضوع (طويقي)، وهذه كلمة يونانية تعني «الموضع» في الأدب والعلوم الاجتماعيّة معا.

تمثّل أواخر الخمسينات فترة أساسيّة في الدراسات حول الحجاج. وفي نفس السنة أي عام 1958 ظهر فعلا مصنّف في الحجاج - البلاغة الجديدة لـ (ك. برلمان ول. أولبراخت - تيتايكا)<sup>8</sup> C. Perelman, L. Olbrecht-Tyteca واستعمالات الحجاج لـ س. أ. تولمين<sup>9</sup> S.E. Toulmin (⇐ الفصل الرابع 2). تلتقي هذه المصنّفات الآتية من آفاق متنوّعة والمحرّرة بأساليب مختلفة تمام الاختلاف في إحالتها المشتركة إلى الممارسة القضائيّة، وهي تبحث في الفكر الحجاجيّ عن وسيلة لتأسيس عقلانيّة خصوصيّة متوفّرة في الأمور البشريّة.

*La Littérature européenne et le Moyen Age latin* 7

*Traité de l'Argumentation. La nouvelle Rhétorique* 8

*Les Usages de l'argumentation* 9

وينبغي أن نلحق بهذين المصنّفين كتاباً مختلف، التّصوّر  
اختلافاً كبيراً ولكنّه يكملهما وظهر بعدهما بعامين هو  
Handbuch der Literarischen Rhetorik 1960 لهـ. لوسبارغ  
(H. Lausberg)، ويقترح هذا الكتاب موسوعة حقيقية وشاملة  
للبلّابة القديمة والكلاسيكية.

هنا ينبغي أن نحذّر من خطر الخلط. ففي السبعينات تكوّنت  
تحت اسم «البلاغة العامّة» بلاغة ... منحسرة تقصي الحجاج  
وتندرج في سلاله بلاغة العبارة، وقد جُددت دراسة الوجوه  
الأسلوبية بإدماجها في الإشكاليات اللسانية الحديثة (جماعة  
Mu، البلاغة العامّة 1970)<sup>10</sup>.

لم تكن الستينات والسبعينات في فرنسا ملائمة دون  
شكّ لدراسة الحجاج. فقد كان يُعترض عليها بالانتقادات  
الرافضة لمفهوم «المؤلف» و«القصدية»، ويُرى في الممارسات  
الحجاجية سعياً وهمياً تقوم به الذات للسيطرة على خطابها.  
ويُعَارَض الحجاج بالاحتميات «غير الواعية» الاجتماعية الاقتصادية  
والنفسانية التي تتحكّم في أعماق الكلام. ومن ناحية أخرى  
فإنّ الرؤية السائدة إذ ذاك تقدّم أشكال «الصراعات القصوى»  
المعارضة تماماً لبرنامج التفاوض والتوسّط الاجتماعي الذي  
يحصل حصّولاً عقلياً والذي يرافق غالباً دراسات الحجاج.

وهذا ما يفسّر دون شكّ أنّ برلمان وجد جمهوره قبل كلّ  
شيء في أوساط تهتمّ بالخطاب القضائي الذي يُمثّل الحجاج في  
اللغة الطبيعية شغله الشاغل، وكذلك في أقسام علوم الخطاب

(Speech Departement) بالولايات المتحدة حيث لم تنقطع الصلة مع الخطابة.

## ب. السبعينات: نقد الحجاج المغالطي والمنطق غير الشكلي

يُفتتح عهد آخر مع المصنّف الأساسي لـ ك.ل. همبلان « C.L. Hamblin 1970 » الحجاج المغالطي<sup>11</sup>، إنّه مصنّف مرجعي لمؤرخي هذا الفنّ كما للفلاسفة واللّسانيين، يقدم فيه همبلان أوّل تاريخ منتظم نقديّ لمفهوم الحجّة المغالطيّة منذ أرسطو إلى تطوّراتها القريبة العهد، وهو يقترح خاصّة استئناف دراسة الحجاج باعتبارها دراسة جدليّة (الفصل الأوّل، 1)، موضوعها حوارات تؤدّي طبقاً لنسق من قواعد سابقة الوضع، صريحة، يلتزم بها المشاركون وقابلة لدراسة شكلية. ويمثّل هذا المصنّف مبعثاً لرجوع الحياة إلى التحليل النقديّ لضروب الحجاج، وذلك خاصّة في أعمال ج. وودس (J. Woods) ودولتون (D. Walton)، وبصفة عامّة بواسطة تيارات الدراسات المتمية إلى «المنطق غير الصوريّ».

لقد جمع ج.أ. بليز (J. A. Blair) ور. ه. جونسون (R.H. Johnson) في المنطق الصوريّ<sup>12</sup> مجموعة من النصوص التي تحدث، من خلال الفكرة الشعاريّة المتمثلة في المنطق غير الصوريّ، قطيعة مع التحليل الحجاجيّ المستند فقط إلى المنطق البدائيّ؛ ويمكن أن تُقرأ هذه البحوث في المجلّة الكنديّة Informal Logic.

في البلاد الناطقة بالإنكليزية، وخاصة في الولايات المتحدة، تمثل هذه السنوات «منعرجا حجاجيًا» في أقسام علوم الخطاب وبعض أقسام الفلسفة حيث يكمل التفكير النقدي حول الحجاجات في اللغات الطبيعية تعليمًا مهمًا أساسًا إلى ذلك الحين بالمنطق الرياضي البدائي. وقد صاحب هذا التطور مصنفات عديدة نظرية وتطبيقية باللغة الإنكليزية مخصصة للحجاج.

### ج- نزعات حديثة: تداوليات الحجاج

تدرس اللسانيات نظام اللسان في حين أنّ التداولية فنّ يدرس الملفوظات آخذًا سياقها بعين الاعتبار. وهي تكون حقلاً شاسعاً نجده بكامل تنوعه في تطبيقه على الحجاج.

تستغل دراسات الحجاج بصفة خاصة نظرية أعمال اللغة لـ ج. ل. أوستين (J. L. Austin) (كيف نصنع الأشياء بالكلمات؟<sup>13</sup> 1962، والترجمة الفرنسية 1970) وخاصة من منظور ج. ر. سيرل (J. R. Searle) (أعمال اللغة<sup>14</sup> 1969، والترجمة الفرنسية 1972). يعتمد هذا البحث عامة على نظرية التحادث التي اقترحها ه. ب. غرايس (H. B. Grice) (المنطق والمحادثة<sup>15</sup> 1975، والترجمة الفرنسية 1979). وقد صيّرت هذه المقاربات دراسة ضروب الحجاج المسماة «يومية» أو «شائعة» خارج الإطار المؤسّساتي أمراً ممكناً، وقد سمحت بتقدير التطورات التي خضعت لها «الأجناس الكبرى» البلاغية

*Quand dire c'est faire* 13

*Les actes de langage* 14

*Logique et conversation* 15

ويتجاوز مفهوم الجنس هذا للذهاب إلى دراسة المناظرة الحجاجية عامة سواء كانت سجالية أو غير سجالية.

ترتبط بالتداولية خمسة اتجاهات بحث هي:

• «التداولية - الجدلية».

يدرس التيار التداولي الجدلي الحجاج باعتباره نمط حوارات شديدة التنميط ويقترح نسقا من القواعد الصريحة للمناظرة الحجاجية المعقنة (ف.هـ. فان إيمران F.H. Van Eemeren، ور. غروتندورست R. Grootendorst، حجاج وتواصل وحجاج مغالطي 1992)<sup>16</sup>.

• الحجاج وتحليل المحادثة

إنّ ما حققه تحليل التفاعلات اللغوية من تقدّم قد مكّن أيضا من التحليل اللسانيّ الدقيق للحجاج في المحادثة (باللغة الفرنسية، ج. موشلار J. Moeschler، الحجاج والتحدث<sup>17</sup> 1985؛ مدرسة جيناف حول أ. رولاي E. Roulet).

• التداولية اللسانية «مدمجة» في اللسان

انطلاقا من جذور ترجع إلى أواسط السبعينات صيغ في الثمانيات بفرنسا تصوّر طريف للحجاج، فقد أعيد تحديد مفهوم الحجاج ذاته انطلاقا من حقل لسانيات «اللغة» خاصّة في مصتف صدر سنة 1983 بعنوان يمثل برنامجا لصاحبيه ج. ك. أنسكومبر J.C. Anscombe، وأو. دو كرو O.

Ducrot، **الحجاج في اللسان**<sup>18</sup>. يحتلّ هذا البحث مكانا على حدة في حقل دراسات الحجاج (⇐ **الفصل الثاني عشر**).

• **التداوليّة الاجتماعية والفلسفيّة لـ «العمل التواصلي»**

لقد أثّرت آثار الفيلسوف ج. هابرماس J. Habermas شديد التأثير في البحث حول الحجاج في اتجاه أخلاقيّة الحجاج (نظرية الحجاج التواصلي<sup>19</sup>، 1981، والترجمة الفرنسيّة 1987).

• **«المنطق التداولي»**

ليست الاهتمامات التداوليّة غريبة عن بحوث المنطقيين في الحجاج والساعين إلى إقامة منطقيّات طبيعيّة تجد امتدادا لها في البحوث المتعلّقة بالعلوم العرفانيّة (غ. فينيو G. Vignaux، **الخطاب صانع للعالم**<sup>20</sup>، 1998، ج.ب. غريز J.B. Grize، **المنطق واللغة** 1990،<sup>21</sup> ومدرسة نوفشتال Neufchâtel مع د. ميايفيل D. Miéville وم.ج. بورال M.J. Borel).

---

*L'Argumentation dans la langue* 18

*Théorie de l'agir communicationnel* 19

*Le discours, acteur du monde* 20

*Logique et Langage* 21

## الفصل الثالث

### لغة الحجاج وما وراء لغته

للغة العادية خاصية مرموقة متمثلة في أنّها تتكلّم عن كلّ الأشياء، وتتكلّم خصوصا عن نفسها؛ فهي تمكّن من المرور إلى مستوى «ما وراء لغوي»؛ فتمكّن بذلك من الحجاج ومن الكلام عن الحجاج.

نتحدّث عن الحجاج في اللّغة عندما نسعى إلى التفكير في هذه الممارسة اللّسانية – (الفقرة 1). وانطلاقا من هذه الخطابات التلقائيّة تبرز بعض الاتجاهات التي تُبنى فيها ما وراء لغويّات نظريّة ونظريّات الحجاج (الفقرة 2).

#### 1. الحجاج : الأعباء القائمة على الكلمات

##### أ. العلاقة الحجاجيّة

لننظر في متوالية من الملفوظات، أي خطاب [مل 1، مل 2]، نقول حدسيّا إنّهُ يمتّ بصلة ما إلى الحجاج، وحتّى أنّ الأمر يتعلّق بحجاج متى أمكن لنا محاكاة هذا الخطاب بأحد الملفوظات التالية.

مل1 يعلّل، يبرّر، يشرّع، يدافع عن، يؤسّس

يسمح بالظنّ، بالقول، بالتفكير...

يؤيّد، يساند، يتضمّن...

يتسبّب، يفسّر، يبرهن، يقيم الدليل...

مل1 يُعرّض على أنّه سبب وجيه لقبول، لاعتقاد...

مل2.

مل1 ملفوظ يرمي إلى، يهدف إلى، يُقصد منه العمل

على أن يقبل مل2 أو أن يُفعل، أو أن يُقال... مل2.

على هذا النحو يمكن أن تُصاغ علاقة الحجة بالنتيجة في جملة واحدة ويمكن لهذه العلاقة أن تصاغ أيضا بملفوظين مرتبطين برابط (← الفصل الثاني عشر، 2).

مل1 لذا، إذن، من هنا ... مل2.

ويمكن أن نقول بصفة عكسيّة إنّ النتيجة مل2 تثبت على أساس الحجّة مل1. ومن هنا تصاغ الجمل الموازية التالية حيث تبدو هذه النتيجة في المكان الأوّل.

مل2 باعتبار أنّ، بما أنّ.

لأنّ، من أجل أنّ، من ناحية أخرى ... مل1.

• يمكن لهذه العلاقة أن تُصاغ بطريقة أقلّ بداهة، ولكنّها كانت موضوع كتابات معمّقة في إطار نظريّات الحجاج اللسانيّة (← الفصل الثاني عشر).

إذا قلنا مل1 فذلك قصد منظور مل2.



السبب الذي من أجله تتلفظ بمـل 1 هو مل 2.

معنى مل 1 هو مل 2.

## ب. الخطابات حول كلمة حجاج

إن كلمة *argumentation* ذاتها هي قبل كل شيء كلمة من اللغة الفرنسية العادية: وهي بهذه الصفة لا تُفـلـت ممّا تشترك فيه كلمات اللغة والمتمثـل في الاشتغال في نطاق شبكة، وترتّب عن هذا نتائج لا شكّ فيها بالنسبة إلى الحجاج.

يمكن النصّ الموالي المشكّل بتركيب ألفاظ يتواتر ارتباطها بالحجاج من تكوين فكرة أولى حول هذه الشبكة. فبعض العناصر المتواترة من هذا الحقل ذي الصبغة القالبية الجاهزة أو «التواردية» أعيد تركيبها في خطاب تلقائيّ حول الحجاج إذن في ما وراء الخطاب، وتتسنى متابعة تنظيمها حسب الأسطر التالية.

«للحجاج وجه عرفانيّ: فأن تحاجّ معناه ممارسة فكرة صائبة. نهيكـل حسب تمشّ تحليلي وتألفيّ مـوـاد؛ ثمّ ننظر في مشكـل ما، ونفكر، ونفسّر، ونبرهن بواسطة حجج ودواعٍ وبيّنات، ونوفّر أسباباً، وتمثّل نتيجة الحجاج اكتشافاً، وتنتج أمراً جديداً، وأليس ما هو أقلّ من المعرفة».

«يسـط المحاجّ الجانب الحدسيّ، ويربط منطقاً بخطاب، في لسان يتحكّم فيه حيث يتجلى تفكير سليم ولكنه مغر أيضاً يعرف كيف يكون جدّيّاً أو ساخراً سخرية خفيّة، دون أن يفقد انسجامه».

«يشتغل الحجاج في الحياة العادية في مقام. وفي الدائرة الاجتماعية يتصل بالجانب الاقتصادي (يُمكن من الإشهار، ويعين على البيع)، والجانب القضائي (القضية) والجانب السياسي والسلطة. يحاج الإنسان في كلّ الوضعيات التي يوجد فيها خيار، ومن ثم إمكانية نزاع، ويكون فيها على المرء أن يبرّر أمره؛ والتي يتحمّ فيها الإقبال على الفعل واتخاذ القرار الصائب».

«وباعتبار أنّ المحاجّ يميل إلى النظر النقديّ، فإنّ قدراته تتجلّى في مناقشة الأفكار حيث تتجابه الآراء، وتُقابل بالاعتراض وتُدحض: يؤدّي تعدّد وجهات النظر إلى التسامح. وهذا لا يعني أنّ المرء يتخلّى عن إقناع الطرف الآخر. ويفترض الحجاج الوقوف موقفاً يُمْكِن من الاختيار الأفضل».

«لكن ينبغي الاحتراز من هذه النظريّة الملائكيّة، فالنقاش يفضي بيسر إلى النزاع والحجاج نشاط يبعث على الريبة بقياساته المغالطيّة وسفسطائيّاته وبرهنته الكاذبة المتّسمة بالتمويه والخداع، وهو يفتح المجال للجدل الفارغ وسوء النية، فالمحاجّ يصبح مفراطاً في أعمال النظر، مما حكا، سفسطائياً، والحجاج ليس إلا قناعاً لميزان قوى صرف: فالمرء يسعى إلى وضع إستراتيجيّة، ويستعمل أسلحة ليتصر بها في معركة يضع حدّاً لها أقصى حجة قادرة على إفحام خصم يجعله يفقد تسلسل خطابه».

لدينا هنا قطعة من خطاب مجهول المؤلف كتب باللغة الفرنسية حول الحجاج ونظم تنظيماً إجمالياً حسب خمسة «خطابات فرعية»:

- خطاب حول الجانب العرفاني؛
- خطاب حول الجانب اللساني؛
- خطاب حول الجانب الاجتماعي؛
- خطاب حول التفاعل التعاوني؛
- خطاب حول التفاعل السجالي.

يحتوي مسرد الألفاظ هذا على إشارات ثرية يمكن أن نقرّر التعمّق فيها أو عدم التعمّق، فنقول مثلاً في شأن كلمة عقل، إنه ينبغي ألاّ نثقل كاهل المعقول بمتطلبات العقلاني لأنّ التفكير الصائب لا يؤدي حتماً إلى قرار صائب؛ فالصواب لا يفضي حتماً إلى العدل. نلاحظ أنّ تراكم العلل ينتج بلا شك حجاجاً لكننا لا نحصل في نهايته على برهنة.

### ج- ضرورة الاختيار

إنّ هذه المبتئات المسبقة أو هذه الآراء المسبقة - ليست أمورا طفيفة. فالمرء يقبل على الحجاج بمعرفة دسمة حول «ماهية» الحجاج. وهذه المعرفة المشتركة ينبغي أن تكون موضوع نظرواشكالا. والالتزام بهذا الشرط هو وحده الذي يجعل من الممكن وضع مبادئ معرفة حول بعض أشكال الحجاج.

كلّ ما في الخطابات الشائعة من «مفاهيم مسبقة» لا نجدها متوخّاة كما هي في جميع نظريات الحجاج، وبعبارة أخرى فلا تستطيع أية نظرية حجاجية أن تنظر في آن واحد مختلف المعطيات الحدسية هذه. فكلّ نظرية تضع أولويات وتحقّق

اختيارات. ويترتب عن هذا تخصص وإعادة تحديد لمسرد الألفاظ تحديدا جزئيا على الأقل.

+ على سبيل المثال يمكن أن يعتمد التفكير على الاستعمال الذي يجعل من **الحجة** شيئا «أقل قوة» من **البيّنة**.

ليس هذا بيّنة وإنما هو مجرد حجة !

سيدي، لقد قدّمت بيّنات لا حججا !

لكنّا لا نفهم القول التالي - إلا في حالة سخرية خفيفة.

؟ ليس هذا حجة، وإنما هو مجرد بيّنة !

تشير نقطة الاستفهام إلى عدم الفهم هذا، ونحن هنا في الطريق المؤدية إلى تقرير تخصيص هذين اللفظين تخصيصا يؤدي إلى الفصل بين علوم الطبيعة (حيث تسود البيّنة) ومقابلها علوم الإنسان (حيث يُكفى بالحجة)، وهذا الموقف قريب من موقف «البلاغة الجديدة».

+ رأينا أنّ الخطاب حول الحجاج يتضمّن خطابا فرعيا سجالياً يفتح اتجاهها نقديا، وقد حُدّد هذه الاتجاه من قبل التيار الذي يربط دراسة الحجاج بالقياس المغالطي، ولكن لا تتكفّل به جميع تنظيرات الحجاج، فهو هكذا أجنبيّ تماما عن نظرية الحجاج «في اللغة» (← الفصل الثاني عشر).

## 2. ملتقيات الطرق النظرية

لا يمكن لنظريات الحجاج، باعتبار أنّها تحدّد لنفسها هدف تفسير الحجاجات في اللسان العادي، أن تتجاهل خضوعها للمعطيات التي كُتبت بصدد التذكير بها. فالنسق الدلاليّ للسان

الذي نفكر بواسطته في الحجاج يوفر على هذا النحو بدايات نظريات، أو «ما قبل نظريات» أو «أشباه نظريات» يجب أن يُقرأ لها حساب.

لا يقتضي هذا بوجه من الوجوه أنّ نظريات الحجاج محكوم عليها بالاندراج في هذه الدائرة اللغوية وأن تكررّها. يمكن أن تؤخذ قرارات من شأنها أن تحدّد ميداناً هو دراسة الحجاج، وضبط موضوعه وتسمح بوضع تنظير له. وعن كلّ قرار من القرارات تنجرّ إعادة تحديد للفظ حجاج ولو إعادة جزئية.

يمكن أن تُعتبر أساسيّة المقابلات الموالية التي صغناها عمداً صياغة باّثة، فكلّ واحدة منها تحدّد مسألة، وحسب الأجوبة الصريحة أو الضمنية التي تُقدم لهذه المسائل نجد نفسنا في هذه النظرية أو تلك من نظريات الحجاج. وكلّ نظرية تتّصف هكذا بحزمة من أجوبة عن هذه المسائل تروم أن تكون منسجمة. وهذه النظريات لا يمكن أن تفهم على سبيل التبادل إذا لم يدرك المرء المسائل التي أثارها.

### أ مسألة 1: اللغة / الفكر

الحجاج نشاط لغويّ يصحبه نشاط فكريّ وينتج أثر فكر؛ فنحن نُقبل على ميدان الحجاج بواسطة علوم اللغة. فالحجاج نشاط فكريّ يُعبّر عن نفسه ويترك أثراً في الخطاب. ويُنظر إلى ميدان الحجاج من زاوية المنطق (الصوريّ أو غير الصوريّ)، والعلوم العرفانية.

### ب مسألة 2: اللسان / الخطاب

+ اللسان حجاجيّ. إنّ هذه الجملة الفرعية الملعزة شيئاً ما تجعل من الاتّجاه نحو نتيجة خاصية دلالية في الجمل (خارج

السياق)، والبحث عن الحجاج ينتمي إلى لسانيات اللسان بالمعنى السوسيريّ للفظ (← الفصل الثاني عشر).

إذا اعتبرنا الحجاج خلافا لهذا ظاهرة خطائية تنتمي إلى ممارسة اللغة في مقام أمكن الاختيار بين أمرين:

• كل كلام حجاجيّ حتما، فهو نتيجة ملموسة للتلفظ في مقام؛ وكلّ ملفوظ يرمي إلى التأثير في المرسل إليه، في الآخر، وتبديل نسق فكره. وكل ملفوظ يُجبر أو يحمل الآخر على الاعتقاد وعلى النظر وعلى الفعل بطريقة غير طريقته. ودراسة الحجاج هي دراسة نفسية لسانية أو اجتماعية لسانية.

• بعض الخطابات فقط حجاجية، وينبغي البحث عن الحجاجية في طريقة تنظيم الخطابات. وهذا الموقف هو موقف النظريات الكلاسيكية للحجاج البلاغيّ.

### ج مسألة 3: حوار أحاديّ / تحاور

تتخذ دراسة الحجاج موضوعا لها أساسا الخطاب الحواريّ الأحاديّ لاستخراج الأبنية التي يقوم عليها (← الفصل الثاني 2 - أ) - والصفتان المشتقتان تحاوريّ ثنائيّ وحواريّ أحاديّ تطابق الاسمين تحاور ثنائيّ وحوار أحاديّ. وموضوع دراسة الحجاج هو المقام التحاوريّ والتداول والتحدث. وتستعمل الدراسة الأدوات التي صيغت لتحليل التفاعلات اللغوية.

### د مسألة 4: دراسة الحجاج غير معيارية/معيارية

تمثّل فائدة المقاربة المعيارية في أنّها تسمح بنقد الظواهر الحجاجية، وتمكّن من التمييز بين الحجاجات الجيدة

والحجاجات الرديئة. والمعايير التي يمكن أن تُفرض على الخطابات أنواع عديدة، ويوجد خياران ممكنان:

+ المعيار الحجاجي هو النجاعة: فالخطاب القائم على «حجاج محكم» هو الذي يحمل على الفعل الحسن، سواء تعلّق الأمر بالحمل على حسن التصويت أو حسن التفضيل أو الاشتراء عن صواب. ولنشر أنّ الأمر يتعلّق بالحمل على الفعل لا بالحمل على الاعتقاد. فمقولات العمل على الإقناع أو الصدق أو الاعتقاد أو الاقتناع هي هنا خاضعة لإشكاليات الفعل. وهذا الحجاج المعيّر بالنجاعة هو حجاج الإشهاريين والسياسيين. فالحجاج من هذا المنظور معناه التأثير.

+ المعيار الحجاجي هو الصدق:

- يضمن الحجاج المحافظة على الصادق واكتشافه. وهذا هو الميدان الواسع للحجاج في العلوم.

يمكن أن يعتبر المرء معيار الصدق معيارا مطلقا ويُحاول أن يُخضع له كلّ الحجاجات المشتركة. ويتواصل برنامج البحث هذا في إطار منطق ومنهج يُسمّيان غير صوريّين وهي تسمية فيها شيء من المفارقة (← الفصل الثاني 2، ب).

## هـ- مسألة 5: إجماع / اختلاف

+ إنّ غاية النشاط الحجاجي هو إقامة إجماع وفسخ اختلافات الآراء. فالتنافر علامة النقص أو الخطأ. والحجاج وسيلة لإدماج الانشقاق بإزالة رأي من الآراء المتنازعة عن طريق العقل؛ وهذا الموقف مصوغ خاصّة في إطار النظريّات التي تتخذ من الصدق معيارا (المنطق غير الصوريّ، التداوليّ الجدليّ).

• إنّ غاية النشاط الحجاجيّ هو تنشيط الخلافات وتعميقها. ويمكن للحجاج أن يُعين على إنتاج آراء غير موافقة. والتنافر شرط تجديد الفكر. وهذا الموقف هو الآن من صنع ش.أ. ويلار (C.A. Willard) مثلاً.



## الفصل الرابع

### التحاور والحوار الأحاديّ الحجاجيّان

يقترح هذا الفصل تعريفا لعمل الحجاج قائما على مفهوم التحاور الحجاجيّ غير المُعيّر (الفقرة 1). وتعرض الفقرة 2 «الطرح» الحواريّ لهذا النوع من التحاور. وتقدّم الفقرة 3 مجموعة من المفاهيم التكميليّة أو المشتقّة من هذا المثال القاعديّ.

#### I. التحاور الحجاجيّ:

##### 1. الطور الأول: العرض

يَبْرُز الحجاج في بداياته في مقامات تحاور يُمهّد بفكرة مثل الفكرة التالية:

1. - العارض: سيكون توت العُلّيق نادرا هذا العام!

ينتج المتكلّم خطابا أدنى يعبر عن وجهة نظر، عن عرض (Proposition)<sup>22</sup>. علينا هنا ألا نفهم من كلمة «proposition» المعنى

---

22 كلمة Proposition لها معان تختلف باختلاف السياق الذي ترد فيه وهي:

المنطقيّ النحويّ وإنّما نستعملها في المعنى العادي: أي العرض. يمكن لخطاب كامل أن يحمل عرضا واحدا، ويصبح هذا العرض، وقد دُعِمَ بمعطيات، نتيجة (ن) للحجاج (انظر الطور 4). ويسمّى المتلفّظ الذي يقدّم العرض بطبيعة الحال عارضا (عا). ويمكن للعرض أن يُقبل من طرف المخاطب.

2.- لا يهمّ ذلك، فسأكل كرزا !

3.- أجل سيّدي !

فالملفوظان 2 و 3 هما «المتتاليّتان المفضّلتان» للملفوظ 1؛ ففي هذا التحوار تفضيل للاتّفاق.

## 2.- الطور الثاني: الاعتراض

لكنّ العارض يُعرّض نفسه بتقديمه هذا الملفوظ لعدم الفهم أو لمعارضة من قبل مخاطبه الذي يمكن له أن يعبّر عن مقصوده بطريقة متفاوتة الحدّة. ويتجلّى ذلك في عدد من الاستفهامات المتروحة بين الشكّ والرفض.

4.- معا: كلا ! ما الذي يحملك على هذا القول؟

5.- آه، هل الأمر كذلك؟ كيف ذلك؟

6.- آه، لماذا؟

7.- أنا أظنّ أنّه سيكون غزيرا.

---

القضية، أو الجملة الفرعية، أو العرض، أو الاقتراح، ولا يمكن ترجمة هذا اللفظ بلفظ عربيّ واحد يؤدّي كلّ هذه المعاني، لذا أثبتنا اللفظ الفرنسيّ في صلب النصّ العربيّ..

والمخاطب الذي يشكّ في العرض المقدّم من قبل العارض ويقابله بخطاب معاكس يسمّى معارضا (معا). ويمكن للخطاب المعاكس أن ينحصر في صيغة دنيا غير لغويّة كتحريرك الحاجبين مثلا تعبيراً عن الدهشة.

\* يفترض الحجاج أن يتساءل المرء هل إنّ عرضاً ما له أساس من الصحة؟ فلا بدّ من الارتياح وجعل العرض موضوع شكّ ونظر، ولا بدّ من الاختلاف في الرأي وأخيراً الاعتراض على خطاب.

لا يمكن أن يوجد حجاج إلا بوجود خلاف حول موقف، أي مواجهة خطاب بخطاب معاكس.

\* إذا كان لا يمكن للمعارض المحتمل أن يعبر عن رأيه في العرض المقدّم من قبل العارض فلا وجود لحجاج ممكن. ويمكن أن نقول عن صواب إنّ صياغة الحجاج لا يمكن أن تتمّ إلا إذا توقّرت بعض الشروط الثقافية والشخصيّة معا، وهو يفترض وجود مجتمع ديمقراطيّ، فإن لم يتوفّر «فوضعية ديمقراطية على الأقلّ». وهذا الشرط يشير إشكاليّة السلطة (⇐ الفصل السادس عشر).

### 3. الطور الثالث: سؤال

يصبح العرض، باصطداه بمعارضة، إشكالياً وموضع نظر، فيصدر عنه موضوع المناظرة، أي المسألة.

السؤال: هل سيكون توت العليق نادراً هذه السنة؟

يثبت العارض أنّه سيكون كذلك ويجب عن السؤال بـ«أجل»؛ أمّا المعارض فيتّجه نحو «كلا».

#### 4. الطور الرابع: حجج

يمكن للمعارض أن يدافع عن وجهة نظره بالاعتماد على وقائع من شأنها أن تؤيده، لذا فإنه يستأنف الكلام عن المسألة بتقديم عدد من المعطيات (مط) المبرّرة للعرض الأول مثل:

8.- عا - هذا ما أشعر به.

9.- لقد قرأته في الجريدة.

10.- لقد قرأته في النجوم.

11.- لا وجود للثمار هذه السنة

12.- توت العليق متأخر.

13.- لقد وقع الجليد.

14.- لقد توقف التوريد.

15.- يقضي جليد فيفري على توت العليق.

تحيل الملفوظات من 8 إلى 15 المعارض على ما تقدّمه باعتباره وقائع يُعتمد عليها لتبرير العرض 1.

● لكن يجب، ليزر المعطى العرض تبريرا حقيقيا، أن يُدرَك المعارض العلاقة بين هذين الإثباتين. لنفرض أنّ المخاطب لا يفهم كيف أنّ تأخر نضج الفراولو ينبئ بقلّة توت العليق، أو لا يرى كيف يؤثّر الجليد في إنتاج توت العليق، ويمكن أن يردّ الفعل بمجموعة من الملفوظات كالأسئلة النمطيّة التالية:

16.- معا - وما هو المشكل؟

17- لا أرى علاقة بين محصول توت العليق  
ومحصول الفراولو وبين الصقيع والغلال.

في نظر المعارض لا وجود لعلاقة بين المعطيات والنتيجة،  
وهو لا يرى كيف يمكن أن نستتج 1 انطلاقاً من 12 و 13،  
ولا يدرك المبدأ الذي يجعل هذه الملفوظات مفيدة لإثبات 1.  
ما الذي يُسند مشروعية «للقفز» من (مط) إلى (ن)؟ وما الذي  
يسمح به؟

• يجب على المعارض أن يجيب عن سؤال المعارض بتوفير  
قانون (قن) - قاعدة، مبدأ عام، «إجازة استدلال» - قادر على  
أن يكون أساً لهذا العبور وبإقامة «جسر» إن جاز التعبير بين  
المعطى والنتيجة.

(قن) الصقيع يقضي على شجر العليق

(قن) توت العليق شأنه شأن الفراولو

الآن وقد دُعمت المعطيات بقانون عبور ملائم فقد اكتسبت  
المعطيات وضع حجة واكتسب العرض وضع النتيجة.

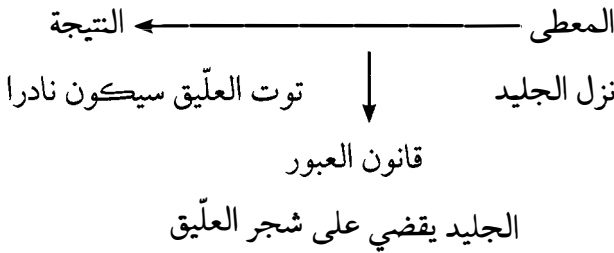
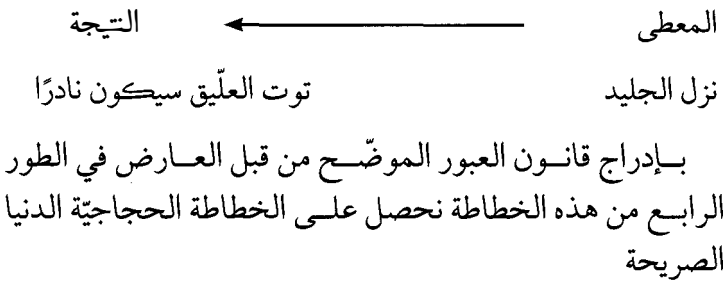
## 2. حوار المحاجّ

### أ. خطاطة الحجاج الدنيا

مكّن التحوار السابق من إقامة الحركة التحوارية للحجاج.  
ومن اللازم الآن البتّ في شأن الخطاب الجمليّ الحواريّ الذي  
يتجه المعارض، ومثاله.

توت العليق سيكون نادراً هذه السنة، فقد حدث صقيع  
شديد....

يمكن إقامة خطاطة لهذه العلاقة بأن نربط بواسطة سهم المعطى الوقائي بالنتيجة التي تسمح باستنتاجها.

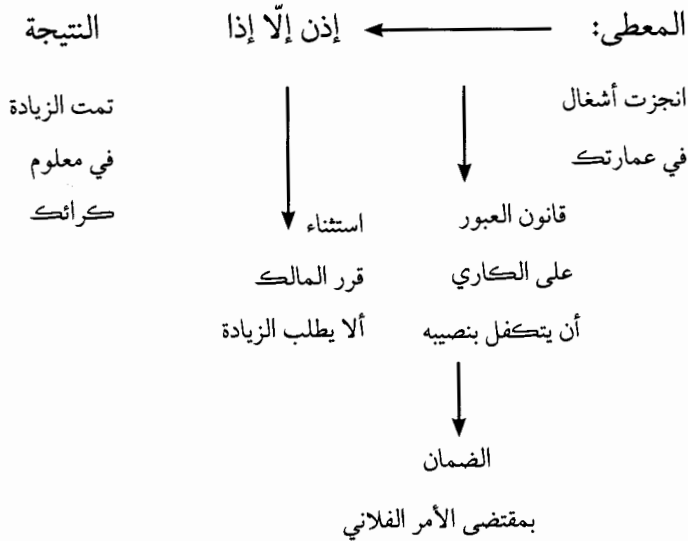


### ب - ترسيمة تولمين

اقتراح س.أ. تولمين (⇐ الفصل الأول، 1 - أ) ترسيمة تسمح بمعالجة جمليّة لعدد من العناصر الخطائيّة التي يكون ترابطها خاصيات ما يمكن أن نسميه خلية حجاجيّة. لنأخذ مثال الخطاب الموالي:

معلوم كرائك يجب أن يرتفع، فقد أنجزت أشغال في عمارتك، وبمقتضى الأمر الفلاني تسمح الأشغال المحددة كما يلي... بالزيادة في المعلوم، والأشغال التي أنجزت عندك هي من هذا النوع، اللهم إلا إذا قرّر مالك يتك عدم تطبيق الزيادة.

يمثل هذا الخطاب الذي يبرّر ويوجّه العرض بالخطاطة التالية (خط):



### ج. التكييفات والعناصر المترابطة للتعريف القاعديّ

إنّ حقل الدراسات المنتمية إلى الحجاج تتواجد فيه تفرقات عديدة للحجاج تواجدا سلميًا قليلًا أو كثيرًا. وليس هذا الأمر بمعزل عن تعدّد معاني الكلمة في اللغة العادية.

### د. حاج، حجاج

+ الحجاج هو هكذا عملية تعتمد على ملفوظ مثبت (مقبول)، هو الحجّة، قصد بلوغ ملفوظ أقلّ إثباتا (أقلّ قبولًا) هو النتيجة. المحاجة هي توجيه حجّة إلى مخاطب، أي سبب وجيه لجعله يقبل نتيجة وحمله على توخّي ما يلائم من ضروب السلوك.

يمكن توسيع هذه التعريفات القاعدية حسب اتجاهين اثنين:

■ من وجهة نظر الحوار الأحادي يُعرّف الحجاج على أنّه كلّ خطاب قابل للتحليل حسب عناصر الخطّاطة (خط) [أي خطاطة تولمين].

■ من وجهة نظر التحوار يمكن أن يُعتبر حجاجيًا كلّ خطاب أنتج في مقام نقاش موجّه بسؤال؛ وهذا التعريف يبدو لنا التعريف الأحسن ملاءمة للعمل الاختباري حول الحجاج.

■ يمكن أيضا أن نحدّد الحجاج على أنّه مجموع التقنيات (الواعية أو غير الواعية) التي تعطي مشروعية لمعتقدات وسلوكات، وهو يروم أن يؤثر في معتقدات من يستهدف وسلوكاتهم (الواعية أو غير الواعية) أو يغيّر ها أو يدعمها.

يوسّع هذا التعريف المفهوم ليشمل غير اللغوي وغير الكلامي وحقل المؤثرات الاجتماعية والنفسانية. ويقتصر التعريف الأول، وهو الذي نلتزم به - على الأدوات اللغوية؛ فحسب هذا التعريف لا تعتبر اللهجة المفيدة للسلطة حجة حتّى ولو تعلّق الأمر بلا جدال بأداة للتأثير؛ فالمنوّم ليس محاجّا.

■ يمكن للعناصر الداخلة في الخطاب الحجاجي أن تُعرّف تعريفًا متفاوت الدقّة؛ وبصفة خاصّة فإنّ الحجاج في اللّغة الطبيعية يتناول شبه الكلامي والضميني (= الفصلان الحادي عشر والرابع عشر)؛

من ناحية أخرى فإنّ طرائق ربط المقدمات (المعطى وقانون العبور) بالنتيجة يمكن أن تكون متفاوتة التعقيد. لنشر إلى



حالتين قصويين. فالحجاج هو بصفة عامة متتالية من الملفوظات (مل1، مل2... إذن مل س) بحيث أنّ مل س يتم إثباته على أساس الملفوظات المحيطة به.

■ هذا التعريف يشمل الاستدلال القياسي: إذا تساءلت هل إنّ كلّ ضروب أ هي ج، ووجدت في قاعدة ملفوظاتي (مل1، مل2...) أنّ كلّ ضروب أ هي ب، وأنّ كلّ ضروب ب هي ج، أمكنتي إذن أن أستج ب كلّ اطمئنان أنّ كلّ ضروب أ هي ج. وهذا هو شأن كلّ أشكال الاستنتاج السببي مع تغيير ما يجب تغييره (← الفصل السابع عشر).

■ وفي معنى مناقض تماما يكفي أن توجد مجموعة من الملفوظات الصادقة في جوار ملفوظ خاطئ لتطبع هذا الملفوظ الخاطئ بطابع الصدق؛ والملفوظ الذي هو موضوع أخذ وردّ إذا ما أقحم في مجموعة من الملفوظات المتناسقة المقبولة يصبح مُحتمَلا. وليصدق الناسُ القدح ينبغي إحاطته بشيء من الصدق.

## ت. الحجاج، النتيجة، قانون العبور

للحجة والنتيجة وقانون العبور أوضاع فعل وأوضاع لغوية وعرفانية مختلفة.

• للحجة وضع معتقد (مقدّم على أنّه كذلك) مشترك، ولها وضع معطى واقعيّ (مقدّم على أنّه) لا جدال فيه. يمكن للذي يُوجّه إليه الحجاج بطبيعة الحال أن يرفض هذا المعطى، لكن عليه أن يبرّر هذا الرفض، فالبيّنة عليه (← الفصل الثالث عشر).

• **الملفوظات النتيجة.** لكلمة «نتيجة» في الحجاج معنى خصوصي نسبيًا، فخاتمة نصّ ما تحدّد تحديدًا آليًا على أنّها نهاية النصّ المعنيّ. والنتيجة التي يدافع عنها نصّ يمكن تمامًا أن ترد في المرتبة الأولى، سابقة للحجّة. وهذه الحالة متواترة في مقالات الصحف.

• **تمكّن عمليّة الحجاج** من أن ننقل إلى أشياء جديدة ووضعيّات جديدة معارف ومعتقدات وسلوكات مجرّبة. وهي تضطلع بدور - ولو شكليّ - في أخذ القرار وتعين على تكوين جواب لثلاثة أنماط من الأسئلة.

ماذا ينبغي أن نعتقد؟ هل ينبغي أن نصدّق هذا؟

ماذا علينا أن نفعل؟ هل ينبغي أن نفعل هذا؟

ماذا يجب أن نرى في هذا؟ هل هو جميل؟ هل هو حسن؟

ينتج عن هذا أنّ الملفوظات النتائج تأتي في صيغتين لغويتين أساسيتين. فبالنسبة إلى النمط الأول من الأسئلة تكون النتيجة صيغة معانيّة، فالأمر يتعلّق نمطيًا بملفوظ يرد في صيغة الحاضر الإشاريّ<sup>23</sup>. «من الأكيد أنّ الأمور تكون هكذا». وفي الحالة الثانية تكون للملفوظ النتيجة صيغة إلزاميّة، وصيغتها النمطيّة هي الأمر «لنفعل هذا إذن». وقد جاء الملفوظ النتيجة في مثالنا القاعديّ في المستقبل الإشاريّ. ويعبّر هذا الزمن عن حدث هو بمقتضى طبيعته غير ثابت، ولكنّ حدوثه قدّم على أنّه شديد

23 يوافق زمن الحاضر الإشاريّ في الفرنسيّة المضارع الدالّ على الديمومة ويترجم أيضًا عن طريق الجملة الاسميّة الخالية من الفعل.

الاحتمال، وفي صيغة الفعل هذه يتجسم حقاً كل الالتباس الذي يتسم به وضع الملفوظات القائمة على الحجاج.

• **قانون العبور.** وظيفة قانون العبور هي نقل الرضى بالحجة إلى النتيجة. هذا العبور يستوجب دائماً قفزة، واختلافاً في المستوى بين الملفوظ الحجة والملفوظ النتيجة. والنتيجة تتضمن دائماً في أن واحد أكثر وأقل ممّا في الحجة: فهي أقلّ إثباتاً من الحجة باعتبار أنها تقول أكثر ممّا تقوله الحجة. النتيجة هي إسقاط للمعطى، وهو إسقاط محفوف بالمخاطر، ولكنه بسبب ذلك يمكن أن يكون مُخَصِّباً. يُعاب الحجاج أحياناً على هشاشة ما يكونه من نتائج، وذلك لأنّه لا يهدف في الغالب إلى اشتقاق معارف بقدر ما يهدف إلى بناء فرضيات عمل وفعل.

• **يوفر قانون العبور للمعطى المعنى الحجاجي** الذي لم يكن له من قبل: وهذه مصادرة أساسية للحجاج الخطابي، فمنها يستمدّ المعطى توجيهه نحو النتيجة. إنّه يُعبّر عن حقيقة عامّة من نمط مثلي ينسب أحياناً إلى متلفّظ جمعي «من المعلوم أنّ...». هو غالباً ضمنيّ ويسمح للمحاجّ بإسناد أقواله إلى مبدأ وعرف مقبول في المجموعة اللسانية التي يتنسب إليها، وتسمّى هذه المبادئ أفكاراً مشتركة أو مواضع *topoi* (مفرد *topos*). وقد أعيد تحديد هذه الألفاظ من قبل مختلف نظريات الحجاج.

### ث. أطراف الحجاج

نسَمّي محاجّاً المتكلّم الذي يحتجّ، ونسَمّي الأشخاص الذين هم أطراف المقام الحجاجي تقليديّاً بعدّة أسماء.

■ يمكن للملفوظات المتممية إلى الحجاجات أن تُحلّل من وجهة نظر لسانية باعتبار أنها يتجهها متكلّم لمخاطب، أو

أن تُحلَّل أيضا بإبراز المحتويات والأعمال، فيقع الحديث عن متلفظ ومرسل إليه.

■ في الخطابة يستعمل لفظ خطيب الذي أكل عليه الدهر وشرب بعض الشيء، خطيب يتوجّه إلى جمهور أو حضور (مجموع المستمعين).

■ قصد وصف التبادلات الحجاجيّة التي تتمّ في إطار نقاش، وهذا ما نعتبره أساسيًا، يقع فيما يتعلّق بالمحاجين التمييز بين العارض (أو العارضين) صاحب الخطاب والمعارض (أو المعارضين) صاحب الخطاب المعاكس. وإذا ما تجاوزت رهانات التبادل الحجاجي الأطراف المعيّنة بصفة مباشرة نسّمى طرفا ثالثا كلّ أفراد الجمهور الشاهد المهتمّ بالتبادل.

## د. الدحض، الاعتراض

يمكن التمييز بين تعريفين للدحض. فمن وجهة نظر الحجاج المنطقيّ العلميّ يُدحض ملفوظ عندما يقع التّدليل على أنّه خاطئ.

من وجهة نظرة ملموسة إلى الحجاج باعتباره تفاعلا تُدحض القضية عندما يتخلّى عنها العارض، وبعبارة أخرى تُدحض القضية عندما نلاحظ أنّها اختفت من التفاعل.

• إنّ التمييز بين الدحض والاعتراض أقلّ وضوحا ممّا قد يبدو. صحيح أنّ الواحد منهما كما هو شأن الآخر يمكن أن يفضي إلى سحب القضية، لكن يبدو أنّ الفرق بينهما راجع إلى مادّة الحجج المقدّمة (فالدحض يمثل شيئا «أقوى» من الاعتراض) أقلّ ممّا هو راجع إلى طريقة الإقحام في التّحاور

الحجاجي؛ فالدحض يزعم غلق الحوار والاعتراض يقتضي جواباً وإذن يقتضي مواصلة الحوار.

### هـ . حجاج مشترك وحجّات مختصة

يقع الحديث عن الحجّاج اليوميّ والحجّاج العاديّ مُقابلة بالحجّاجات المختصة، وينبغي الحديث بالأحرى عن حجّاج مشترك: فحجّاجات القاضي اليومية والعادية تنتمي إلى الخطاب القضائيّ المختصّ.



## الفصل الخامس

### قانون الصدق: الحجاجات والقياسات المغالطية

لم تشهد جميع الاختيارات النظرية المعروضة في الفصل 2 (الفقرة 1) نفس التوسع، وإشكاليات الحجاج التي هي موضوع هذا الفصل لها أهمية بالغة، إذ تضع مسألة علاقات الحجاج بالعلم، وهي حاملة لنقد منطقيّ للحجاج المشترك. فتحليل القياسات المغالطية من منظور صوريّ أو غير صوريّ -وتعرف في فرنسا أقلّ ممّا تعرف الأعمال المخصّصة لبلاغة الحجاج- كانت موضوع بحوث واسعة باللغة الإنكليزية. ويعتمد هذا التصرّو للحجاج على الاختيارات التالية:

الحجاج عملية فكر، ومسألة منطق

الحجاج يُنتج في نصوص حوارية أحادية، والنصوص هي أداة تعبير منطقيّ.

تُنتقد هذه النصوص حسب معيار منطقيّ علميّ يأخذ بعين الاعتبار قيمة صدق الملفوظات الداخلة في الحجاج، وصحة الرابط بين المقدمات والنتيجة.

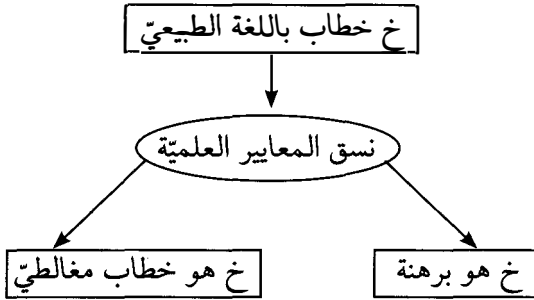
تحدّد الفقرة 1 الحجاج بالنسبة إلى مفهومي البرهنة الاستدلالية والقياس المغالطي، ثم يُعرّف القياس المغالطي بالنسبة إلى القياس (الفقرة 2)، وتأتي الفقرة 3 ببعض الأمثلة، وتتساءل الفقرة 4 عن تطوّر مفهوم القياس المغالطي مع إبراز فائدة نظرة إلى الحجاج باعتباره نشاطا نقدياً.

## 1. الحجاج مقابل برهنة؟

يُقال أحيانا إنّ الحجاج والبرهنة يتعارضان تعارض غير الثابت والمشكوك فيه مع الصحيح والدقيق. يطابق هذا القول تعريفا بلاغياً للحجاج مخالفاً للتعريف الذي يناقش في هذا الفصل. لقد عرّفنا الخطاب الحجاجي في الفصل السابق بأنّه الخطاب الذي يزعم حمل الغير على قبول ملفوظ مل س، باعتماد ملفوظات أخرى {مل1، مل2...}. والأسئلة التي توجّه الأعمال حول القياس المغالطي هي التالية: هل لهذا الزعم أساس؟ هل التبرير المقدم لفائدة مل س بواسطة {مل1، مل2...}. كاف؟ الإجابة عن هذه الأسئلة يمكن أن توفّر بتطبيق معايير علمية على هذا الحجاج باللغة الطبيعية.

يمكن فعلاً أن نطلب من العلم أن يوفّر نسق ظواهر مشهود بحقيقتها ومعايير تحلّمل ملفوظات تمكّن من اختبار الخطاب الحجاجي. ويمكن إذ ذاك أن نجد مخرجين اثنين حسب تحمّل الخطاب (خ) النقد أو عدم تحمله له؛ فإذا خرج الخطاب من الاختبار منتصراً نتحدّث إذ ذاك عن برهنة استدلالية، وفي الحالة المعاكسة نقول إنّ الحجاج ليس سوى سراب، وحديث لغويّ ومنسطة وقياس مغالطي. يبرز الرسم الموالي دور «المصفاة» المحدّد لمعايير العلم:





من الممكن التلّفظ، حتّى باللغة الطبيعيّة، بخطابات متناسقة تستند إلى مجموعات متنوّعة من الإحالات على الواقع التي تؤوّل إلى نتيجة مضبوطة كامل الضبط: يكفي أن نتذكّر محضر تجربة باسكال (Pascal) <sup>24</sup> حول الفراغ، أو البرهنة الفيزيائيّة حول حركة الأرض التي أنجزها فوكو (Foucault). <sup>25</sup> إنّ أوّل نسق من المعايير العلميّة كان نظريّة القياس الصحيح الذي هو من عمل أرسطو ويتمثّل في مناقشة شرط صحّة الحجاج القياسي وهو أساس مفهوم القياس المغالطيّ.

## 2. القياس، القياس المغالطيّ، السفسطة

### أ. القياس

يمكن أن نعتبر أنّ الحجاج القياسي يوافق تشكييلة خاصّة من خُطاطة الحجاج القاعديّة (⇐ الفصل الرابع)،

<sup>24</sup> باسكال (1623 - 1662): رياضيّ وفيزيائيّ وفيلسوف فرنسيّ أقبل منذ الصغر على العلوم، اخترع آلة حساب، وصاغ قوانين الضغط الجويّ، وقوانين توازن السائلات...

<sup>25</sup> فوكو (1819 - 1868): فيزيائيّ فرنسيّ، اخترع الجيرسكوب (gyroscope)، وحدّد سرعة النور...

فالقياس هو فعلا خطاب متكوّن من ثلاثة ملفوظات (قضايا) بسيطة، وإحدى هذه القضايا أي النتيجة يُستدلّ عليها بالقضيتين الآخرين أي المقدمات، وتتضمّن كلتا المقدمتين لفظا تشترك فيه مع الأخرى، ولفظا مشتركا مع النتيجة، فالحجاج 1 قياس، وقياس صحيح.

1- الحيوانات ميّنة؛

- الناس حيوانات؛

- إذن الناس ميّتون.

### ب. القياس المغالطيّ

الحجاج 2 قياس، لكنّه ليس قياسا صحيحا: فمقدّماته صادقتان، وكذلك نتيجته، لكنّ النتيجة لا تنجم عن المقدمتين:

2- الناس حيوانات؛

- الخيل حيوانات؛

- إذن لا إنسان حيوان.

يعرّف القياس المغالطيّ بادئ ذي بدء (fallacy بالإنكليزية) بأنّه حجاج كاذب، أي إنّّه حجاج لا يحترم قاعدة من القواعد الضامنة لصحة القياس. فعدم الاحترام لقاعدة مخصوصة يولّد قياسا مغالطيا مخصوصا. وباعتبار أنّ هذه القواعد محدودة العدد فإنّه يمكن تعداد القياسات المغالطية.

يُدخل التعريف التقليديّ للقياس المغالطيّ شرطا إضافيا وهو: ليوحد قياس مغالطيّ يجب ألا يكون عدم احترام القاعدة

القياسية «بديهياً»، حتى ولو تعذر هنا أن نحدّد في ما تتمثّل البدهاة. نحفظ إذن بالتعريف الموالي: القياس المغالطي هو حجاج (استدلال) غير صحيح يشبه شكله شكل القياس الصحيح.

القياس 2 غير الصحيح لم يُسند إليه اسم خاصّ في نظرية القياس المغالطي، وذلك دون شكّ لأنّ عدم صحّته بديهية، لا يخطئ فيها إنسان ولا يمكن لأيّ إنسان أن يخدع بمثل هذا التفكير.

### ج- السفطة

لقد أشرنا إلى أنّ النقد الأفلاطوني حمّل كلمة «سفطة» بمحتوى سلبيّ بصفة نهائية؛ وما نسّميه اليوم «سفطة» يقوم على اتّهام الآخر بأنّ له نيّة سيّئة، وهي تهمة قد يكون توجيهها صائباً أو في غير محلّه. والفرق، كلّ الفرق، بين السفطة والقياس المغالطيّ يقوم على مسألة نسبة النوايا. فالقياس المغالطيّ يتمي إلى الخطأ، في حين أنّ السفطة قياس مغالطيّ يخدم مصالح صاحبه أو أهواءه. فبمقتضى قاعدة العمل (الموضع) «ابحث عن المتفيد من الجريمة»، فإنّ خطأ من هذا القبيل سرعان ما يُحمّل بنية خبيثة من قبل ضحيّته. وهكذا يتمّ الانتقال من الوصف إلى الاتّهام الذي نجد معناه مُضمّناً تمام التضمين في الدلالة الحديثة لكلمتي سفطة وسفطائيّ.

يُرصّد القياس المغالطيّ في التحوار أو الحوار الأحاديّ، في حين أنّ السفطة تُرصّد حتماً في التحوار؛ فالمرء يشعر بالحرّج عندما يأتي بقياس مغالطيّ فيصلحه، لكنّه لا يشعر بالحرّج عندما يصوغ سفطة، ويشعر بالضيق عند ملاحظته أنّ

السهم لم يصب هدفه، وهو يقع في شرك قياساته المغالطية، لكنه يحمل الآخرين على الوقوع في شرك ضروب سفسطته، وهذا ما يميز الأحق من النذل؛ وبديهي أنه من المفيد أن توجه الصفتان معاً إلى الخصم في مناورة توقع التهمة على شخصه (← الفصل الخامس عشر).

### 3. بعض القياسات المغالطية الكلاسيكية

تقدم هذه الفقرة ثلاث حالات مثالية من القياس المغالطي: قياس التباس وقياسات استنتاج. ولندكر من القياسات الكلاسيكية الأخرى الدور والتسلسل والمصادرة على المطلوب (← الفصل العاشر 16)، وقياس «السبب الخاطيء» (← الفصل السابع). كل هذه القياسات قد توسع في نقاشها والتمثيل لها في إطار السنة التي سماها همبلان (Hamblin) «معالجة نمطية» (للقياسات المغالطية)، وأصل هذه السنة يرجع إلى آثار أرسطو وخاصة التبيكات السفسطائية<sup>26</sup>.

#### أ. قياسات الالتباس

إن اللغة الطبيعية ملتبسة، ويتجلى هذا الالتباس في كل مستويات بنية الملفوظات (تركيبية ومعجمية وصوتية)، فالكلمات ضبابية، ويمكن للكلمة الواحدة أن يكون لها عدة معان؛ ويمكن لتركيبين متماثلين تماثلاً سطحياً أن يُعبرا في الواقع عن معنيين مختلفين تمام الاختلاف. الخ. ويقتضي البحث عن الصدق أن يتحرى المرء اللغة حتى يزيل منها كل إمكانية للالتباس.

- إن حضور لفظ ملتبس في قياس يمنع من أن يستتج المرء نتيجة حاسمة؛ لنضرب لذلك المثل الكلاسيكي.

3 - البرونز معدن

- المعادن أجسام صافية

- البرنز إذن جسم صاف.

ينطلق هذا القياس من مقدّمتين صادقتين، ويبدو مستعملاً لاستنتاج صحيح (ب هو م، وم هو ص، إذن ب هو ص)، ويفضي إلى نتيجة خاطئة، فنحن نعلم أنّ البرونز هو خليط من النحاس والقصدير، فليس هو إذن جسمًا صافيًا.

إنّا هنا أمام قياس صحيح ظاهريًا، ولكنه في الواقع غير صحيح، فهو إذن قياس مغالطيّ راجع إلى التباس، فكلمة «معدن» في المقدّمة الثانية لها معنى تقنيّ: «معدن 1 = جسم بسيط...» وقد استعملت في المقدّمة الثانية في معنى عامّ: «معدن 2 = معدن 1 أي معدن خليط». نفّس الدالّ «معدن» له مدلولان، ولنا كلمتان اثنتان «معدن 1» و«معدن 2». نتيجة هذا فالقياس 3 شبه قياس، له في الواقع أربعة أجزاء لا ثلاثة وشكله الواقع غير الصحيح هذه المرّة هو عدد 4.

4 - أ هو ب

ج هو د

إذن أ هو د

- في مقاومة الالتباس هذه نشاهد توزيعًا حقيقيًا للأدوار بين التحليل اللسانيّ والتحليل المنطقيّ. فالأوّل يحلّل معنى

الكلمة، والثاني يهتم بالاشتغال الصائب للخطابات الاستنتاجية التي أدخلت فيها الكلمة ويكشف الكلمات الملتبسة مصدر للتائج غير المشروعة.

• ومن وراء المشاكل الخاصة بالقياس فإن إزالة الالتباسات تمثل الشغل الشاغل لسنة بأكملها متعلقة «بنقد اللغة» وترى أن اللغة الطبيعية ليست سوى أداة للفكر العلمي وهي متسمة بالنقص، ولا يمكن لها أن تؤدي الحقيقة أداء صائباً إلا إذا خضعت لصارم إكراهات وحدة المعنى. ونجد هنا أحد الأسباب التي أدت، في العصر الحديث، إلى التخلي عن اللغة الطبيعية لأداء حاجيات التعبير العلمي وإلى تعويضها باللغات الرياضية التي يمكن لمراقبة الفكر أن تُمارَس عليها تمام الممارسة.

### ب. قياسات الاستنتاج المغالطية

تسم الطائفة الثانية من القياسات المغالطية بطريقة فاسدة لتسلسل الملفوظات. فهناك خلل في الاستنتاج.

+ قياس تسوير مغالطي:

لا شيء يتحرك تحركاً ذاتياً؛ كل الأجسام المتحركة في الكون تتحرك بفعل سبب، إذن يوجد سبب وحيد يجعل كل الأجسام تتحرك.

ويمكن عن طريق ترجمة أن نصوغ هذا الحجاج في شكل استنتاج غير صحيح.

لكل جسم يتحرك يوجد سبب لحركته.

إذن يوجد سبب وحيد لكل الحركات.

وهذا يذكر بالأخطاء المتعلقة بتغيير مواقع الأسوار: نعلم أنه لا يمكن أن نستنتج من قولنا «لكلّ أوجد ب بحيث» [القول التالي]: «يوجد ب ما بحيث لكلّ أ...».

\* قياس مغالطيّ لإثبات التالي:

العابرة لا يفهمهم الناس، أنا لا يفهمني الناس، إذن فأنا عبقرّي.

هذا الحجاج يمكن اعتباره قياسا مغالطيا باعتبار أنه يمكن أن يطابق الاستنتاج الموالي غير الصحيح. لنسمّ أ الشخص المسمّى بأنا؛ لنفرض.

هـ (أ): أ لا يفهمه الناس

ع (أ): أ شخص عبقرّي.

تكتب إذن العبارة التالية «العابرة لا يفهمهم الناس»: ع (أ) هـ (أ) وتقرّ أ كذلك «إذا كان المرء عبقرّيّا فإنّ الناس لا يفهمونه حتما»، «يكفي أن يكون المرء عبقرّيّا لثلا يفهمه الناس». ويكون تدليل عبقرّيّنا غير المفهوم تمثّلا في ما يلي:

ع (أ) هـ (أ). بما أنّ هـ (أ)؛ إذن ع (أ).

ع (أ) هو المقدم وهـ (أ) هو التالي؛ يُعرف هذا القياس المغالطيّ باسم إثبات التالي. نعلم علما حدسيّا بأنّ عدم الفهم له أسباب أخرى غير العبقرّيّة، وأنّه من سوء الحظّ لا يكفي للمرء ألا يُفهم ليكون عبقرّيّا. وبعبارة أخرى فليس من الضروريّ أن يكون المرء عبقرّيّا لثلا يُفهم، وينبغي ألاّ نجعل من شرط كاف شرطا لازما.

يمكن لمثل هذه الاعتبارات المنطقية أن ترد في المناقشات حيث تمكّن من دحض حجاج محرج؛ ومن لبيديهي أنّ الكفاءة المنطقية جزء من الكفاءة الحجاجية بمقتضى أنّ اللسان هو رحمهما المشترك.

\* يوفر هذا القياس المغالطي مثالا حسنا للمشاكل التي تُطرح عندما نريد أن نُحلل ونقيّم حجّاجات اللغة لطبيعية بواسطة «مصفاة» المنطق. لنفرض أنّي آتي بالحجاج التالي:

المرجة مبلّلة، فالمطر إذن نازل.

يمكن أن يُدحض قولي فأتهم بأنّي احتججت عن طريق إثبات التالي انطلاقا من القانون السببي الضمني «إذا نزل المطر تُبلل المرجة»، ومن المعطى الواقعي «المرجة مبلّلة». لكن يمكنني أن أدافع عن نفسي قائلا بأنّي لم أحتجّ على أساس استدلال منطقي، ولكن باعتماد حالة بحالة (⇐ الفصل التاسع، 3): لا يمكن للمرجة أن تبّلل إلّا في حالتين: إمّا أن تُسقى وإمّا أن ينزل المطر؛ وإنّي أعلم أنّها لم تُسقى، ولذا فبما أنّ المرجة مبلّلة فذلك يدلّ على نزول المطر. لسنا هنا أمام استلزام رديء الاستعمال، وإنّما أمام حجاج شديد الإحكام يعتمد حالة بحالة وقد بقيت بنيته ضميّة.

\* يمكن لهذا الخطاب أن يُنقل إلى أشكال أخرى من الحجاج، فكون المرجة مبلّلة مثلاً مؤشر وجيه على المطر، ويمكن أن يذهب بنا الفكر إلى حجاج مؤشّري (⇐ الفصل السابع، 3، ج).

\* نرى على أساس هذه الأمثلة أنّ سلسلة من عمليات الترجمة إلى رموز منطقية تُعدّ ضرورية لتطبيق معيار منطقيّ على خطاب



حجاجي باللغة الطبيعيّة. تتعلّق هذه العمليات بملفوظات اللسان الطبيعيّ الذي يتكوّن منه هذا الخطاب وعلى روابط اللغة الطبيعيّة التي تمفصلها. فعمليات الترجمة هي التي يمكن أثنائها الإقرار بأنّ عناصر معنويّة ما غير ذات بال؛ فنقول إنّ الصفة الفلانيّة والظرف الفلانيّ لا تضيف إلّا «فويرقات» لا أثر لها في أساسيّ الأمور. ويقع كذلك تحويل معنى الروابط الطبيعيّة إلى مقابلاتها المنطقيّة. يقترح الفصل 12 (الفقرة 2) مثالا لهذا «التجميع» فيما يتعلّق بتحليل الرابط لكن.

#### 4 - توسيع مفهوم القياس المغالطيّ ومشتقاته (Fallacy)

إنّ إشكاليّة تحليل القياسات المغالطيّة، أي إشكاليّة الحجاج باعتباره نظريّة نقديّة تمّ تطويرها بصفة خاصّة في العصر الحديث في الأدبيّات الإنقلوسكسونيّة. وسنواصل استعمال «paralogisme» لترجمة «fallacy» علما أنّ الكلمة الإنكليزيّة أكثر جريانا من مقابلها الفرنسيّ.

##### أ. الحجاج منهجاً

تدعو نظريّة الحجاج النقديّة هذه المعتمدة معيار الصدق إلى اعتماد منهج يتمثّل في تطبيق مقاييس من نمط منطقيّ-علميّ مخفّفة على خطابات الحجاج الشائع الذي هو بين بين.

لقد رأينا أنّ التفكير في الحجاج المغالطيّ يعتمد، طبقاً لستّة مشتقّة من أرسطو، على نظريّة شروط صحّة القياس المتصوّر على أنّه كنه العلم. لقد تمّ بطبيعة الحال تجاوز هذا التصوّر، فلم يعد يطابق لا غايات العلم الحديث ولا أدواته. لكنّ

نظريات القياسات المغالطية طالما ترددت بين استرجاع الظواهر الكلاسيكية التي ناقشها أرسطو، وما يمكن تسميته بنقيض درس في المنهجية العلمية.

\* يقتضي اعتبار القياس مغالطياً وجود عملية دقيقة أو إجراء تدليل مقنن يمكن أن نقول في شأنه إنه تم خرقه أو تطبيقه على غير أساس. هكذا تستعمل أو قد استعملت عبارة قياس مغالطي يُسمى بها في المجال المنطقي الرياضي؛

- كل تطبيق خاطئ لتقنية استدلال صورية (منطق القضايا، والمحمولات، نظرية الاستنتاج، جبر العلاقات)؛

- كل خرق لقواعد الاستقراء؛

- كل مماثلة مختلة؛

- كل نتيجة خاطئة تم حصولها بتطبيق مغلوطة للمناهج الإحصائية - أو لحساب الاحتمالات.

في ميدان العلوم التجريبية يعتبر قياساً مغالطياً كل خرق للمنهج العلمي، خاصة في تحديد علاقات السببية وارتباطاً بذلك في صياغة القوانين التفسيرية؛ وقد أضيفت إلى هذه القائمة القياسات المغالطية المتأتية من المعايينات الخاطئة والأفكار المسبقة المغلوطة.

لقد توسعت نظرية القياسات المغالطية باعتبارها جهنماً للتفكير عن طريق خرق كل الإكراهات الإبستمولوجية التي قام عليها العلم الحديث.

\* لقد رأينا أنه يوجد، ضمن المهام التقليدية للحجاج، بناء أجوبة لا فقط للسؤال «ماذا يجب أن نعتقد؟» بل كذلك للسؤال

«ماذا يجب أن نفعل؟». ينبغي أن نلاحظ أنه، في نظر التحليل المنطقي، ليست شروط صحّة الحجاجات المفضية إلى ضرورة فعل إلا نسخة من الشروط التي وُضعت للشروط المفضية إلى صدق إثبات. مثال ذلك: يُحلّل الحجاج المتمثّل في قولنا:

«لنفعل هذا بما أننا لا نعرف كيف نفعل غيره»

كما يحلّل نظيره:

«هذا صادق بما أنك لم تُقم الدليل على أنه كاذب».

وينتقد باعتباره قياسا مغالطيا قائما على الجهل (= الفصل الثالث عشر، 4).

### ب. تجاوزا للقياسات المغالطة

يوجد إذن «تفشّ معنوي» حقيقيّ لمفهوم القياس المغالطي؛ فإذا ما عدنا إلى الحدس المركزيّ لاحظنا أنّ مجال القياسات المغالطية تشهد توسّعا موازيا تماما لتطوّر المنهج العلميّ. والمشكل كلّهُ يتمثّل في معرفة إلى أيّ مدى وفي أيّ اتجاه يكون الحجاج المشترك أو ينبغي أن يكون حجاجا علمياّ معياره الصدق. من الأكيد أنّه يمكن أن يكون كذلك كما يمكن للخطاب المشترك أن يكون أداة جيّدة للتعبير عن الصدق؛ من البديهيّ أنّ الأمر لا يتعلّق بالدفاع عن المحال الذي يحرم على المنطقيّ نقد برهنة ما طبقا لمعايير منطقيّة وعلميّة. لكن لا يخضع كل حجاج حتما لقانون الصدق، إذ يحدث أن يعلّق الحكم بالصدق أو أن يتحيل. فالاعتماد على الصدق لا يمثّل حتما طريقة وجيهة لتوضيح النقاش وإنهائه.

## ت - في سبيل نقد محايت للحجاج

- تبيّن الفصول الموالية أنّ كلّ شكل من أشكال الحجاج تطابقه طريقة دحض مخصوصة. ويسمح أخذ طرق الدحض النموذجية هذه بعين الاعتبار أخذًا منتظمًا بأن نُقحم في التفكير حول الحجاج بعدًا نقديًا محايتًا لا يعتمد على معيار منطقيّ خارج عن الجدل الحجاجي، فكفاءة الدحض النقدية جزء من الكفاءة الحجاجية، إذا تناولنا الحجاج باعتباره شكل تفاعل - طبقًا للبرنامج المحدّد بتعريف العمل الذي أخذنا به في الفصل الرابع.

## الفصل السادس

### نمطيات الحاجات المشتركة

#### 1. ثلاث نمطيات

إذا ما تخلّينا عن حصر الحاجات المشتركة في القياسات حصرا مصطنعا فإنّه ينبغي أن نتساءل عمّا يمثّل خصوصيّة (أو خصوصيّات) بنيتها (أو أبنيتها). توجد إجمالا ثلاثة أنماط من الأجوبة الكلاسيكيّة عن هذا السؤال.

- الاتجاه الأوّل الذي هو بالأحرى استقرائيّ يقوم على ضبط نمط أشكال حاجيّة تُستخرج اختباريّاً (الفقرة 1).

- الاتجاه الثاني الذي هو بالأحرى استنتاجيّ، يسعى إلى بناء خُطاطة عامّة للخطاب الحاجيّ؛ والاقتراح الأكثر إحكاما هو اقتراح تولمين (Toulmin) (الفقرة 2).

- والاتّجاه الثالث الذي هو بالأحرى استنتاجيّ كذلك، يحدّد أنماط الاحتجاجات انطلاقا من نسق من القواعد (الفقرة 3).

يسمح كلّ بحث من هذه البحوث ببناء نمطيّة، وتجسّم الأنماطيّات الموالية كلّ اتّجاه من هذه الاتّجاهات الثلاثة.

## أ. أنماطية برلمان، وأولبرخت - تيتيكا

يتعمل مصنف رسالة في الاحتجاج تصنيفاً ذا ثلاثة مداخل.

• **الحججات شبه المنطقية:** إنها تُحدّد على أنّها قريبة من التديلات الصوريّة، ولكنّها تختلف عنها من حيث أنّها ليست ملزمة، وأنّها تفتح إمكانيّة النقاش. فالتناقض وتحصيل الحاصل وعلاقة التعدية ... هي من الحججات شبه المنطقية. ويذكر تعريف هذه الحججات شبه المنطقية ومناقشتها تعريف القياسات المغالطية التي نظرنا فيها (← الفصل الخامس).

• **الحججات القائمة على بنية الواقع.** إنّها تستغلّ علاقة تعتبر موجودة بين الأشياء... ويضمّ هذا الصنف الحججات القائمة على السبب والشخص والحججات المعتمدة على العلاقات الرمزية.

• **العلاقات التي هي أساس بنية الواقع.** تحت هذه التسمية نجد المثال والقياس والنموذج؛ ولم يعد هذا المدخل موجودا في كتاب إمبراطورية البلاغة (1977) <sup>27</sup>. لقد انثقت هذه الأنماطية بسبب اعتمادها على اعتبارات خارجة عن الحدث الحجائي

• **أنماطية تولمين، ريك (Rieke) وجانيك (Janik)** (1984)

تميّز هذه الأنماطية بين تسعة أنماط من الحجج بدون وجود مستويات وسطى بينها:

- بالتماثل
- بالتعميم
- بالعلامة
- بالسبب
- بالسلطة
- بالمأزق
- بالتصنيف
- بالمتعارضات
- بالدرجة.

لقد اقترح تولمان في مرحلة أولى خُطاطة للحجاج (⇐ **الفصل الرابع 2، أ**). ونحن هنا أمام أنماطية، ولا يوجد بطبيعة الحال تنافر بين الأنماطيتين، إذ يمكن فعلاً أن نعتبر أنّ أنماطية الحجاجات ليست أقلّ أو أكثر من أنماطية لقوانين العبور التي تقوم عليها التعدية (حجاج، نتيجة) (انظر خطاطة ⇐ **الفصل الرابع، 2، ب**)؛ فالحجاج بواسطة السبب يُسمّى كذلك لأنّه يستغلّ «قانون عبور» من صنف سببيّ.

### **ج - أنماطية فان إيمران (Van Emeran) وقروتندورست (Grootendorst) (1992)**

إنّها أنماطية قياسات مغالطية تعتمد نسقاً بعشر قواعد يقوم عليها النقاش النقديّ، وتحدّد هذه القواعد العشرة «عقد التواصل» لحجاج معقلن. ويؤدّي خرق أيّ عنصر من عناصر

«عقد التواصل» هذا إلى حصول قياس مغالطيّ. فالقاعدة الأولى تنصّ على أنّه:

يجب على الأطراف المساهمين في النقاش ألاّ يحولوا دون التعبير عن وجهات النظر، أو دون مناقشتها.

تفرض هذه القاعدة إكراها على النقاش الحجاجي، فلا بدّ من أن يبقى مركزاً على موضوع النقاش، وتقصي من النقاش الحجاجي المعقلن مناورات تحويل النقاش عن مجراه نحو اعتبارات شخصية أجنبيّة عن أصل النقاش.

يؤدّي عدم احترام القاعدة الأولى إلى قياسات مغالطيّة مدارها استشارة الشفقة (لا تحكموا عليّ، فلي ثلاثة أطفال أعيلهم)، أو إلى مهاجمة شخص الخصم (⇐ الفصل الخامس عشر).

## 2. تصنيف حسب ثلاثة أقطاب

ينبغي أن يُقيّم كلّ تصنيف بالنظر إلى قدراته على أن يفي بالحجاجات الملموسة. ويمكن لنا من هذا المنظور وبأخذ التصنيفات الموجودة بعين الاعتبار أن نقف عند واحد منها يقرّ بأنّه ينبغي أن يُحلّل كلّ حجاج حسب مقاييس تتعلّق بالأشياء وباللغة والتفاعل.

ستتناول الفصول الموالية كلّ واحد من هذه المواضيع.

### أ. الحجاج يعالج أشياء وعلاقات بين الأشياء

الفصل 7: السببيّة والحجاج

الفصل 8: الحجاج والقياس



الفصل 9: الحجاج حول طبيعة الأشياء وتعريفها.

ب. يخضع الحجاج لإكراهات اللغة التي يتجلى فيها

الفصل 10: موارد اللّغة

الفصل 11: التعيين وتبنيّات موقف

الفصل 12: الحجاج «في اللغة»

ج. الحجاج إجراء تفاعليّ

الفصل 13: الحجاج المرتبط ببنية التفاعل

الفصل 14: اقتسام الملفوظات

الفصل 15: الحجاج حول الشخص

الفصل 16: حجاجات السلطة.



## الفصل السابع

### السببية والحجاج

تبدو فكرة السبب مفهوما بسيطا، وهو بالحدس يبدو واضحا، لكنّ هذا يعني عملياً أنّ اللغة الجارية لا توفّر لتعريف السبب إلاّ مفاهيم هي على الأقلّ في نفس الدرجة من التعقّد؛ ولمقاربة هذا المفهوم لنا طائفة من الألفاظ لا يمكن تقدير درجة تكافئها إلاّ سياقيا:

الحدث أ سبب الحدث الأثر<sup>28</sup>، النتيجة ب<sup>29</sup>.

أ - هو مصدر<sup>30</sup>، يحدّد<sup>31</sup>، يثير ب<sup>32</sup>.

ب - يحدث «بسبب»<sup>33</sup>؛ ب بفعل أ<sup>34</sup>.

---

effet 28

conséquence 29

à l'origine 30

détermine 31

déclenche 32

à cause 33

dû 34

يُقال أحيانا إنّ المرء يعرف حدثا ما أن يحدّد سببه أو أسبابه؛ ويتمثل التحريّ إذ ذاك في البحث عن الظاهرة أ، وتحقّق المعرفة السببيّة في الحجاج حسب أشكال متنوّعة، وينبغي تمييز الحجاج الذي يقيم علاقة سببيّة (الفقرة 1) من الحجاج الذي يتغلّ علاقة سببيّة (الفقرة 2)؛ أي الحجاج بالسبب، والحجاج بالنتيجة (حجج تداوليّة وآثار منحرفة). يمكن أن نربط بهذا النمط الأخير طائفة من الحجاج المشتقّ مثل الحجاج بواسطة عبء الأشياء، والحجاج بواسطة المنحدر الزلج، والحجاج بواسطة القرائن (الفقرة 3). تخصّص الفقرة 4 لمسألة العلاقات بين الحجاج والتفسير الذي كثيرا ما يُذكر عند الحديث عن السبب.

## 1. الحجاج المقيم لعلاقة سببيّة

### أ. مثال

غاية هذا الضرب من الحجاج بيان وجود علاقة سببيّة بين حدثين (يمكن أن نقول في هذا الشأن حجاج سببيّ). إنّ البحث عن أسباب ظاهرة ما أمر هامّ بطبيعة الحال للمعرفة الصرف كما للمعرفة المقصود بها العمل.

• من أشهر الأمثلة وأشدّها صبغة مأسويّة لمثل هذا البحث هو مثال تحديد سبب الحمى النقاسيّة من قبل أ.ف. سمّلويس (I.F. Semmelweis) الطبيب في المستشفى المركزي بفيانا، وذلك بين 1844 و1848؛ والظاهرة التي تحتاج إلى التفسير هي التالية: يُوجد في هذا المستشفى قسما توليد يستقبلان نفس العدد من النساء، لكنّ نسبة الوفيات أكبر في

أحد القميين منها في الآخر (11,4% في القسم عدد 1 مقابل 2,7% في القسم عدد 2 وذلك لسنة 1846). لماذا هذا الفرق؟ لقد وقف سملوايس عند تسع فرضيات من شأنها أن تفسّر هذه ظاهرة.

• تربط إحداها مثلا نسبة الوفيات المرتفعة بإمكانية وجود فروق في نوع العلاج بين القميين، وقد حاول سملوايس رصد هذه الفروق فلم يجد شيئا منها، لذا أقصى هذه الفرضية، وتنسب فرضية أخرى الوفيات المرتفعة إلى ضرب خاص من نفعال النساء الوالدات؛ وفعلا فالقساوسة الذين كانوا يرافقون المحتضرات في لحظة موتهن كانوا يمرّون بكامل القسم عدد 1، حيث الوفيات مرتفعة ارتفاعا ملحوظا، في حين أنّه يمكن لهم أن يذهبوا مباشرة في القسم الآخر إلى سرير المحتضرات بدون أن يلاحظ مرورهم، قد يكون إذن سبب الوفيات ضربا من الصدمة النفسية، قام سمالوايس بتجربة فطلب من القساوسة أن يذهبوا إلى أسرة المحتضرات في القسم عدد 1 باجتناّب لفت النظر، لكنّ عدد الموتى لم ينخفض، لذا ليست هذه الفرضية صالحة أيضا.

• تقوم فرضية أخرى على وجود «مادة قاتلة». لقد لاحظ سملوايس أنّ القسم عدد 1 يُستعمل لتكوين طلبة الطبّ الذين يمارسون التشريح قبل الاعتناء بالنساء في قسم الولادة، ويُستعمل القسم عدد 2 لتكوين القابلات وهنّ لا يشاركن في حصص التشريح. وقد لاحظ سملوايس أنّ أصابعه لها بعد تشريح رائحة غريبة، لذا غسل يديه بمحلول يمكن أن ننعتة بالمطهر، وطلب من كلّ طالب أن يفعل مثله؛ نتيجة ذلك: في شهر أفريل 1849 كانت نسبة النساء المتوفيات في القسم 1

من أجل الحمى النقاسية 20%. وابتداء من شهر ماي انخفضت نسبة الوفيات، بعد توحي غسل اليدين، إلى 1% في نفس القسم؛ وهكذا وجد سملوايس بلا منازع طريقة كسر السلسلة السببية التي كانت مصدرا للوفيات.

• لنا هنا مثال نموذجي لدراسة المنهجية السببية: صياغة الفرضيات والقيام بتجارب حاسمة تمكن من إقصاء البعض من هذه الفرضيات وإقرار الفرضية التي تكتسب وضع «سبب» مكونة هكذا معرفة ممارسة ومعرفة علمية.

لهذا الحجاج السببي قوة تحمل على الاقتناع قد يُظن أنها لا تُرد. لكن شتان بين الصرامة والاقتناع: فبعد مرور عشرين سنة ظل زملاء سملوايس يعزون نسبة وفيات النساء بعد الولادة إلى الصدمة الناشئة عن الرعب. إن هذا المثال يوقر لنا إذن أكثر من عبرة مفيدة لدراسة الحجاج.

### ت. دحض الحجاج السببي

إن طريقة الحجاج تختلط هنا بالمنهج العلمي ذاته، فهي مسيرة بهاجس إبستيمي يتمثل في تأسيس المعارف وإلغاء الأخطاء: فما هو السلوك الذي يتوخاه المرء حتى لا ينسب إلى ظاهرة سببا ليس هو سببها؟ أو إذا ما نظرنا في حالة تفاعل ما: كيف يمكنني أن أبين أن خصمي نسب إلى ظاهرة ما سببا ليس هو سببها، وأن الأمر قد لا يرجع إلا إلى الصدفة حيث يرى هو علاقة سببية؟

توفي بسكتة قلبية. وقد وجدوا على مكتبه رسالة موجهة إليه من جابي الضرائب !

يستخدم الحجاج السببي قياساً مغالطياً متمثلاً في «السبب المغلوط»، إذا ما أقرّ عن خطأ وجود علاقة سببية بين ظاهرتين. تناقش المصنّفات المنهجية مناقشة مفصلة مختلف الوجوه الممكنة. ويتمّ البحث مثلاً عن ضروب قلب السبب والأثر (لكنّ جانب القصدية سيخلط الأوراق، وفي بعض الحالات الدائرية يدعم الأثر السبب)، وينبغي التيقّن من أنّه لا يوجد عامل ثالث يُحدّد أيضاً ما اعتُبر سبباً وأثره الخ.

تكوّن مجموع المقاييس التي تمكن من تنقية الحجج السببية نسقاً معيارياً يشتغل على النحو الذي بيّنا في الفصل الخامس. وهذا المعيار هو على ذمة كلّ محاجّ نقديّ، فيمكن له أن يطبّقه في أكثر التفاعلات شيوعاً.

## 2. الحجج المستغلة لعلاقة سببية

تعتمد أشكال أخرى من الحجج الشائعة على السببية؛ ولا يتعلّق الأمر بالنسبة إلى هذه الحجج بإقامة علاقة سببية وإنّما يتعلّق باستغلال مثل هذه العلاقة التي يقتضيها (ولا يقيمها) الحجاج. يمكن أن نسمّي عامّة هذا النمط من الحجاج «حججاً بالرابط السببي» - أو بالسبب الذي هو طرازها. ويضطلع القانون السببي بدور قانون العبور بالنسبة إلى هذه الحجج، وهي بداية قابلة للتجريح بصفة منتظمة عن طريق الدحض الموجّه إلى هذا الرابط السببي.

## أ- الحجاج بالسبب

### • التعريف

معقد هذا الضرب من الحجاج على وجود أثر متولد من وجود سبب وذلك حسب الخطاطة الموالية:

1- سؤال: هل يقع الحدث س؟

2- توجد حاليا ظاهرة. ما هي أ

3- يوجد قانون سببي يربط الظواهر من نوع ظ 1 بالظواهر من نوع ظ 2: ظ 1 - سبب  $\Leftarrow$  ظ 2

4- أهي من نوع ظ 1

5- س هي من نوع ظ 2

6- إذن سيقع س.

نرى أن الحجاج بالسبب يقتضي في المرحلة 4 و 5 عمليات مقولة وتعريف ( $\Leftarrow$  الفصلان التاسع والحادي عشر).

### • الدحض

ويمكن لأنواع هذه المراحل أن تكون موضوع نقاش - وعليه يُعترف بما يلي:

- أ ليست من صنف ظ 1

- أ هي فعلا من صنف ظ 1 وس هي فعلا من صنف ظ 2، لكن لا وجود لقانون سببي بين ظ 1 و ظ 2.

- أ هي فعلا من صنف ظ 1، و ظ 1 مرتبطة فعلا ارتباطا سببيا ب ظ 2، لكن س ليست من صنف ظ 2.



إنّ خطاطات الحجاج والدحض هذه قابلة للتطبيق جزئياً على الحجاجات «بواسطة الأثر» و«بواسطة النتيجة».

### ب- الحجاج بالأثر

إذا تمّ الربط بين سبب ونتيجة ربطاً متظماً متبادلاً، وإذا لوحظ الأثر فإنّه يمكن إقرار السبب.

إذا كان له ندبة فذلك لأنه جرح.

يذكر أيضاً الحجاج بالعلامة، وهو الحجاج المعبر عنه بأنّه «لا دخان بدون نار».

### ج- الحجاج بالنتائج

في المسائل البشريّة يتغلّ الحجاج المسمّى حجاجاً تداولياً، ودحضه بالآثار المنحرفة المتغلّة للربط السببيّ، وآلية ذلك هي:

سؤال: هل يجب التصويت لهذا البند؟

العارض: نعم لأنّه ستكون له النتيجة الفلانيّة وهي إيجابية (حجّة تداوليّة).

المعارض: كلاً لأنّه ستكون له النتيجة الفلانيّة الأخرى وهي سيّئة (أثر منحرف).

مثال:

سؤال: هل يجب إضفاء المشروعيّة على المخدّرات ؟

العارض: نعم بإضفاء المشروعيّة على المخدّرات يمكن من الحدّ من عصابات المافيا المرتبطة بها (حجّة تداوليّة).

المعارض: كلاً فإضفاء المشروعية على المخدرات يزيد في عدد متعاطيها (دحض بالأثر المنحرف).

لقد سبق أن قال أرسطو: اعتباراً لما عليه المسائل البشرية فكل قرار تكون نتائجه بعضها إيجابياً وبعضها الآخر سلبياً. فإذا كان المرء مناصراً للتدبير المعني فإنه يقدم نتائجه الإيجابية، وإذا كان مناهضاً له فإنه يعتمد على نتائجه السلبية.

تتمدّ السببية مكانتها ممّا لا بدّ ممّا ليس منه بدّ؛ إنّ استعمال الحجاج التداولي ودحضه بالآثار المنحرفة يقوم على بناء متفاوت الاحتمال لقصة سببية تكون قادرة على ربط متناسق بين التدبير المقترح بالظاهرة الإيجابية أو السلبية التي تسمح بدعم ذلك التدبير أو الاعتراض عليه.

### 3. الحجاجات المرتبطة بالحجاج بالسبب

#### أ- وطأة الأشياء

يمثل الحجاج بوطأة الأشياء (الإكراهات الخارجية) حالة قصوى مهمة من الحجاج بالسبب. فإذا ما تعلّق الأمر بتبرير قرار سياسيّ مثلاً فإنّ وطأة الظروف يقدم على أنّه هو الذي جعل اتّخاذ القرار المعنيّ أمراً لازماً.

إنّ ما يحدث في العالم هو الذي أجبرنا على أن نفعل ما فعلنا. إنّ هذا الحجاج يردّ ما يتّسم به العالم السياسيّ من عدم تحديد إلى حتميات العالم الفيزيائيّ؛ ويقابل الحجاج بوطأة الأشياء الحجاج الإراديّ الذي ينفي هذه الحتمية ذاتها.

حيث توجد إرادة يفتح طريق.

بيان هذا حجاجيًا أنَّ الحجاج الإراديّ يمكن من نقض الحجاج بواسطة وطأة الأشياء، ومن جعل صورة الإنسان الذي تجود به العناية السماوية، الإنسان المنقذ، تُطلّ من وراء الصورة الكلاسيكية لإنسان الوضع الراهن.

### ب. المنحدر الزلج

يمكن أن نتحدّث أيضًا عن الوقوع في الدوامة، ويتمثّل ذلك في قول المرء إنّه لا يمكن القيام بالعمل الفلانيّ لأنّه إذا تمّ ذلك فإنّ عملاً آخر يصبح ضروريًا، ثمّ عمل آخر الخ.. فلا يكون للأمر حدّ:

إذا شرعت في ذلك فإنّك لا تدري أين تتوقّف.  
وتصلح هذه الحجّة في صورتها المنفية هذه للدحض، فهي حجّة الالتزام.

لا يمكن لنا أن نتراجع، فالمرء لا يغيّر رايكته وهو يعبر النهر، لقد خصّصنا أكثر ما يلزم من المال ومن التضحيات لهذه المؤسسة، ويجب علينا أن نواصل.

### ث. الحجاج بواسطة القرائن

هو حجاج الشرطيّ الذي يتمكّن عن طريق تراكم الجزئيات من إعادة بناء سيناريو الجريمة وكشف المجرم؛ وحجاج عالم الحيوانات الذي يحدّد نوع الحيوان اعتمادا على بقايا فكّه؛ وهو أيضًا حجاج الأم التي تصل عن طريق تراكم مؤشّرات إلى هذه النتيجة التي تكون شبه ثابتة:

إنّ ابنتي شاردة الفكر، لقد وجدت في جيبها تذكرتي  
سينما، وهي تشاهد الأفلام العاطفية في التلفزة، يا  
إلهي، إنّها بالتأكيد عاشقة !

## 4- التفسير والحجاج

### أ. أسئلة متناظرة

إنّ مفهومي الحجاج والتفسير متناظران إلى حدّ ما:

- حالة التفسير: المعطى هو الظاهرة ظ الثابتة، فنبحث عن  
سببها س، وفي العلاقة:

س - (سبب) ⇐ ظ

يقع النقاش حول س.

- حالة الحجاج بالسبب: تمّ قبول ظاهرة (المعطى) وعندئذ  
نساءل إلى أيّ حدّ هي تبرّر النتيجة. ففي العلاقة «معطى ⇐  
نتيجة» تكون النتيجة هي موضوع النقاش.

يمكن التفسير بشيء آخر غير السبب كالتماثل، وذلك  
بتقريب حدث غريب من حدث مألوف (⇐ الفصل الثامن).

### ب. السؤال لماذا؟

في حالة الحجاج السببيّ الذي نظرنا فيه في الفقرة 1، كان  
النساء يمتن «بسبب» مادّة ينقلها الأطباء الذين لا يغسلون أيديهم،  
إذن هناك فعلا علاقة سببيّة بين معالجة جثث الموتى وموت  
النوافس. فرضيّة «المادة القائلة» قد تمّ رُوّزها بنجاح، في حين  
أنّ الفرضيّات الأخرى تمّ إلغاؤها، فهي تفسّر إذن الفرق بين نسب

الوفيات وتسمح بالقيام بعمل منتظم للتقيص من هذه الوفيات. يأتي الحجاج السببيّ بجواب عن نمط من الأسئلة هو لماذا؟ وهو يفسّر إذن حدثاً بربطه بسبب قارّاً.

يمكن أن يعني هذا أنّ سَمَلوايس أجاب عن السؤال: «لماذا تتوقّى النساء في القسم عدد 1 بأعداد أكبر؟». إنّ هذا التفسير يفضي بالتأكيد إلى حزمة جديدة من المشاكل: من البديهيّ أنّنا نريد مزيداً من المعرفة حول هذه «المادّة القاتلة» التي ينقلها من لا يغسل أيديهم من الأطباء.

• إنّ مسألة التفسير يمكن أن تُصاغ وأن يعاد تحديدها باعتبارها مثكلاً يجب حلّه في صلب نظرية علميّة؛ إلّا أنّه ينبغي، فيما يخصّ المسائل البشريّة، أن نشير بوضوح إلى أنّه لا يكون لحدث ما سبب «واحد» فهو يتحمّل عدّة تفسيرات، ويدخل في سلسلة سببيّة، ويحدّد سببه طبقاً لمصالح المحلّل. مثال لذلك: مات عدد من الأنصار أثناء مباريات لكرة القدم. والسؤال هو: ما السبب؟ هل هو ضعف قفص صدر الضحايا أم بطء مصالح النجدة أم قصور مصالح الشرطة أم قدم الملعب أم جشع المنظّمين الماليّ أم جنون الأنصار أم الاضطرابات الاجتماعيّة أم البطالة أم الإقصاء الاجتماعيّ أم النظام الرأسماليّ...؟

كلّ واحد يأخذ من السلسلة السببيّة بحسب معتقده الإيديولوجيّ وبرامج عمله. وينبغي أن تؤخذ هذه العملية بعين الاعتبار في تحليل الحجاجات القائمة على مفهوم السبب، فالتفسير يهتّى الحجاج، وفي تسلسل (التفسير والحجاج) فإنّ المحاجّ هو في السبب الذي يبينه.



## الفصل الثامن

### الحجاج والتماثل

ليس الحجاج بالتماثل مثبتاً أبداً، وقيمتة التفسيرية غير ثابتة (الفقرة 5)؛ إلا أنه يضطلع بدور رئيسي في إنتاج تبريرات الأقوال حسب خطأ الفقرة 1، ويقبل طريقتين للدحض تتعلق إحداهما بصحته، وتدور الأخرى بصفة أشدّ حسماً حول «استغلال مبالغ فيه» للتماثل (الفقرة 2)؛ وهو أساس الحجاج بالسابق والأنموذج والمثال (الفقرة 3)، وكذلك الحجاج بالاستقراء (الفقرة 4).

#### 1- التعريف

##### أ- الخطأ

يُستعمل التماثل حجاجياً في الحالات التي من الأنواع التالية:

- 1- عندما يكون صدق قضية (ق) ووجاهة خطّة عمل (ع) موضوع نظر؛
- 2- عندما تعتبر القضية (ق) صادقة والعمل (ع) ملائماً؛

3- عندما تكون (ق) و(ع) مماثلتين على التوالي لـ(ق) و(ع) وفق هذا المظهر أو ذاك؛

4- إذن (ق) صادقة و(ع) ناجعة.

نسَمي كلاً من (ق) و(ع) موضوعاً وكلاً من (ق) و(ع) مماثلاً.

### ب. التعبير عن إقامة العلاقة التماثلية

العلاقات الموائية تربط ربطاً صريحاً بين تماثلات:

ق مماثلة لـ ، مجانسة لـ ، تُشبه...، شبيهة بـ ، حسب صورة...، تذكر...، تطابق... ق' .

ق وق' متشاكلان، من نفس الجنس، تُوجد وجوه تماثل بين ق وق'.

كما (أن)، مثلما أن، ك... ق ، ق'.

### ج. مثال

يستغلّ الدحض الموائي القياس:

- في هذا المصنف أُعيد كتابة كلّ الأمثلة وتبيّطها؛

- لذا ليس للمصنّفات المداخل أيّة فائدة عندما يتعلّق الأمر بتحليل حالة ملموسة؛

- هذا خطأ محض، فَصُورُ النباتات ملتبسة دائماً، والرسوم هي التي نتعرّف بها على النباتات.

يَسْنَى تفكيك هذا المثال كما يلي:



الموضوع: الأمثلة في مصنّف مدخل.

السؤال: هل يجب أن تتضمّن مصنّفات التقديم أمثلة واقعيّة أم أمثلة مبسّطة ؟

العارض: يجب أن تتضمّن أمثلة مبسّطة.

المعارض: لا فائدة في الأمثلة المبسّطة.

مماثل الموضوع: رسوم النباتات.

دحض الاعتراض عن طريق التماثل: الرسوم مفيدة في النباتات.

## 2. دحض التماثلات

كلّ مماثل للكلّ حسب هذا المظهر أو ذاك، ويمكن أن يُصاغ التماثل صياغة متكلفة.

### أ. الدحض المتعلّق بصلب الموضوع

يتمثّل هذا الدحض في بيان أنّ الموضوع يختلف عن نظيره من حيث بعض النواحي الأساسيّة في إطار النقاش الجاري.

السؤال: من يدفع تكاليف سفر البابا ؟

العارض: ينبغي أن يتكفّل بتكاليف سفر البابا كلّ الناس سواء كانوا ممن لا دين لهم أو من المؤمنين. وعلى كلّ فالذين لا أطفال لهم يساهمون في نفقات التربية القوميّة

المعارض: يتقاضى الذين لا أطفال لهم جناية يسددها  
أطفال الآخرين. أما الذين لا دين لهم فإنهم لا يحصلون  
على شيء من المؤمنين سوى وعيد بعقاب جهنم.

### ب. دحض قياس التمثيل بالتركيز على الشخص

طريقة الدحض هذه بالغة النجاعة لأنها تقع في حيز الخصم  
(الفصل الخامس عشر)

- يذهب المعارض «بعيدا» بالتمثيل المقدم في الخطاب  
المعروض بغية قلبه لفائدة خطابه هو أي المعارض.

- يقبل المعارض أنّ هذا الموضوع يماثله تماما ذاك  
الموضوع:

- بتبشير مظهر في التمثيل لم ينتبه إليه العارض، فيجعل التمثيل  
في خدمة الخطاب المعاكس.

مثال:

السؤال: هل يجب أن يتكفل الضمان الاجتماعي  
بالمعالجة بدواء المبتادون (منتوج بديل) الذي يُقترح  
لمتعاطي المخدرات؟

العارض: نعم فشان متعاطي المخدرات شأن المدمنين  
على الكحول، فالهيئة الاجتماعية تكفل بالمعالجة  
الطبية للمدمنين على الكحول، ويجب عليها إذن  
أن تكفل بمعالجة متعاطي المخدرات بواسطة  
المبتادون.

المعارض: كلا، فالميتادون ليست دواء وإنما هي مخدر؛  
أنا موافق على التكفل بالمعالجة الطبيّة للمدمنين على  
الكحول، لكن لا على دفع ثمن شرابهم.

### 3. التمثيل في مجالات حاجيّة مختلفة

للمثيل دوره في الحجاجات التي تقدّم فيها حالة سابقة  
وفي تلك التي تُحمل فيها حالة راهنة على حالة نمطيّة وفي  
الحجاجات التي يُقترح فيها النسج على منوال؛ واشتغال هذه  
الحجاجات من ميزات الميادين القانونيّة والسياسيّة والأخلاقيّة.

#### أ. السابق

تصدر الأحكام حسب سياقات أحكام ماضية تهّم حالات  
من «نفس الصنف»؛ وليست الأهميّة التي تُولّى إلى السابق إلّا  
تعبيرا عن ضرورة الانسجام بين القرارات المتّخذة.

يضطلع التماثل بدور أساسيّ في التدليل القضائيّ حيث  
يتمّ التعبير عنه في صيغة قاعدة عدالة تتطلّب معاملة الحالات  
المتماثلة بنفس الطريقة، ومن المفروغ منه أنّ التماثل يحظى أو  
لا يحظى بالقبول حسب وجهة النظر المتوخّاة، ويجب على المرء  
أنّ يحتجّ لثبته. وتشتغل مختلف أشكال الحجاج عند تطبيقها  
على حالة ملموسة اشتغالا متعلّلا.

#### ب. «النظائر الكبرى» في الحجاج السياسيّ

تضطلع بعض الأحداث في البرهنة السياسيّة بدور النموذج.

فلقاء مونيخ<sup>35</sup> وإرادة التوسّع النازيّة ومجرى الحرب العالميّة الثانية والإبادة هي الأحداث المتناظرة الكبرى التي استعملت للتفكير في الحروب الحاليّة من حرب الخليج إلى حرب البوصنة.

ويمثّل الفياتنام عند الأمريكيين النظير الكبير الذي يُمتجد به عندما يتعلّق الأمر بالتدخلات الممكنة في الخارج.

### ج. الحجاج الأخلاقيّ

+ سواء تعلّق الأمر بتقليد قدّيس أو بطل أو بالتصدّي للثيم، تقوم نجاعة الحجاج بالنماذج أو بالمنفّرات على آليات تماه نفسانيّة.

+ الحجاج بواسطة الإجراءات الانتقاميّة حجاج أخلاقيّ أساسا. فحجّة «العين بالعين والسنّ بالسنّ» تستعمل لتبرير عمل ذميم أخلاقيا:

لماذا أعين أخي على القيام بواجباته المدرسيّة؟ فقد رفض إعارتي سيارته الصغيرة.

على هذا النحو يُبرّر عمل سلبيّ بموازاته بعمل سلبيّ آخر؛ ويُدحض هذا الحجاج انطلاقا من المبدإ الأخلاقيّ المتمثل في أنّ الشرّ لا يكافح بالشرّ، وأنّه لا يمكن مجارة الشرّ بالشرّ، ومن المقبول إذن أن يجازى الخير بالخير.

35 هو لقاء تمّ في المدينة الألمانية مونيخ، وشارك فيه رؤساء حكومات ألمانيا، وفرنسا، وانكلترا، وإيطاليا، وأفضى إلى اتفاق يفرض على تشيكوسلوفاكيا تسليم أراضي السودات (Sudètes) إلى ألمانيا، مما شجّع حكومة هذه الدّولة على مواصلة سياستها التوسّعية.

لقد أعارني أخي سيارته الصغيرة، فمن الطبيعي أن أعينه على القيام بواجباته المدرسية.

لا أن يكافأ الشرّ بالشرّ، فلئن قُتل السيلداف السكّان البلداف المدنيين، فليس من الممّوح به أخلاقياً للبلداف أن يقتلوا السكّان المدنيين السيلداف.

#### 4. قياس التماثل والاستقراء

الحجاج بالاستقراء يعمّم تعميماً تمثيلاً على كلّ الحالات الملاحظة التي تمّت على أساس عدد محدود من الحالات:

أغمس يدي في الكيس وأخرج منه حبة قمح

أغمس يدي في الكيس مرّة ثانية وأخرج منه حبة قمح ثانية

... أغمس يدي في الكيس للمرّة 294 وأخرج منه الحبة الرابعة والتسعين بعد المائتين.

النتيجة: إنّي أمام كيس قمح.

يسمح الحجاج بالاستقراء خاصّة بتقديم ملفوظات أجناسيّة تتخذها حجاجات أخرى قواعد، ويُدخّل هذا الحجاج بيان أنّه يصدر عن تعميم متسرّع.

هذا اليابانية صهباء، فكلّ اليابانيات صهب إذن.

## 5. هل يمكن أن يكون التماثل تفسيرياً؟

يُقابَل أحيانا بين التماثل الحجاجي والتماثل التفسيري، ويمثل الثاني حالة خاصة من الأول:

1 - القضية ق غير مفهومة.

2 - لا يوجد نقاش حول ق؛ فهي مفهومة.

3 - القضية ق نظيرة ق'.

4 - ق مفهومة.

لا تتعمل ق' هنا للبرهنة على ق وإنما تتعمل لتفسيرها.

إنّ طلب التفسير يعبر، من وراء البحث عن السبب (⇐ الفصل السابع)، عن شعور بالضيق أمام حدث لا يتماشى مع عاديّ الأمور، ويُعتبر تفسيراً كلّ كلام من شأنه أن يزيل هذا الضيق، وتعتبر ظاهرة ما «مفسرة» عندما تُدمج في نسق من التمثلات: يُفسّر مرض غنمي بالسحر الذي نفثته جارتني.

إنّ ما يكون تفسيراً في نسق ما لا يكون كذلك في نسق آخر. لتدبّر لقياس التماثل القياس بين الذرة والمجموعة الشميّة. يُقال أحيانا إنّ المجموعة الشمسيّة توفّر «نموذجاً» للذرة، فالشمس تمثّل النواة المركزيّة والكواكب التي تدور حول الشمس تمثّل الإلكترونات؛ وهكذا يتوفّر لبنية الذرة «تفسير» أول؛ لكن يكفي أن يتعمّق المرء قليلاً لبيّن أنّ التماثل يضلّل بقدر ما يفسّر، فليس لأنساق القوى داخل الذرة أيّ شبه بأنساق القوى في المجموعة الشميّة:

- الكواكب تحافظ على مدار قارّ بمفعول قوّتين: جاذبيّة الشمس من ناحية والقوّة النابذة من ناحية أخرى.

- توجد فعلا قوّة مطابقة لجاذبيّة الشمس للكواكب، لكن لا شيء يطابق القوّة النابذة. ولئن كان لحدود التماثل هذه وظيفة تقرّيبية للمعارف، فهي لا تقوم في النظرية بأية وظيفة. ومن شأن الفيزيائي أن يكون أكثر حساسيّة بأنّ مثل هذا التفسير يمكن أن يكون «عقبة» حقيقة في سبيل الفهم.





## الفصل التاسع

### الحجاج حول لصيغة الأشياء وتعريفها

تولي المنهجية العقلانية مكانة رئيسية لمسألة أنماط التعريفات المختلفة وللمقاييس التي ينبغي أن يستجيب لها «تعريف جيد»، وتحدّد هذه المقاييس نسق المعايير التي تسمح بـ«انتقاء» التعريفات الجيدة (← الفصل الخامس). عندما يُوضع التعريف وضعا صحيحا فإنه يمكن أن يكون أساس حججيات بواسطة التعريف (الفقرة 1)، وإذا ما وُضع وضعا سجاليا فإنه يصبح هو نفسه حججيا (الفقرة 2): نجد هنا أنفسنا في المفصل الدقيق بين مسائل الأشياء ومسائل اللغة وهو ما نتناوله ابتداء من الفصل الموالي. ويسمح درس التعريف بأن نثير مشكل صحة التعيينات الذي سنجده في الفصل 11. وهو درس يدخل في فحص الظروف المحيطة، ويؤسّس أنماط حجاج أخرى، كالحجاج حالة بحالة (الفقرة 3).

#### 1- الحجاج بالتعريف

##### أ. التعريف بالخطوط العريضة

1- يُحدّد مفهوم م بسلسلة من السمات المميّزة:

تقتضي الديمقراطية دستورا، ووجود مجلس منتخب، وانتخابات دورية تقع بانتظام وتُحدّد بالقوانين؛ ومسؤولية الحكّام.

1 - ننظر في كائن خاصّ س متسائلين هل ينتمي إلى هذا الصنف.

السؤال: هل البلد الفلانيّ ديمقراطيّ أم لا؟

2 - نقارن بين خصائص هذا الكائن س بمقتضيات التعريف:

هل لهذا البلد دستور، ومجلس منتخب، وهل تقع فيه انتخابات دوريّة منتظمة ومحدّدة بالقانون، وهل الحكّام فيه مسؤولون عن قراراتهم؟

3 - نقرّر أنّ هذا الكائن الخصوصيّ يطابق أو لا يطابق مقتضيات التحديد؛ وعلى هذا الأساس نُقرّ بأنّه م أو لا. هذا البلد يمثّل / أو لا يمثّل ديمقراطيّة.

يمكن للمفاهيم أن تُعرّف لا فقط بمجموعة من الشروط التي هي مبدئيّاً لازمة وكافية، ولكن تُعرّف أيضًا بقياسها على ممثلين طرازَيْن للمقولة المعنيّة:

الديمقراطيّة طريقة في الحكم شبيهة بطريقة هولندا، والولايات المتّحدة....

### ب. التعريف وماهيّة الأشياء

يسمّى أحياناً هذا الحجاج بالتعريف حجاجاً بالماهيّة، فالتعريف في منظور أرسطيّ من المفروض أنّه يلتقط السمات الجوهريّة والواقعيّة للمُعرّف ولا يلتقط إلّا هذه السمات؛ فالحجاج بالتعريف يتمثّل إذن في إعطاء كلّ شخص المكانة التي له بمقتضى طبيعة الأشياء، ويمثّل الحجاج بالتعريف الحجاج

بأتم معنى الكلمة، وتمتد جذوره إلى الفلسفة والمنهجية الأرستين. والمثال الشهير على ذلك أنه إذا ما تعلّق الأمر بالحكم على مدى مشروعية حرب من الحروب فإنه يتم الرجوع إلى تعريف الحرب العادلة طبقاً لما حدّته سلطة معترف بها أي منظمة الأمم المتحدة أو القديس طوماس الإكويني. وبمقتضى تحديد الحرب العادلة نبدي الحكم حول نزاع محدّد على ضوء المقاييس العامة التي تمّ استنباطها على النحو المذكور.

يمكن لنا على غرار الحجاج بالسبب والحجاج بقياس التماثل أن نضع تصانيف كاملة تستجيب للخُطاطة الحجاجية للحجاج بالتعريف.

## 2- التعريف الحجاجي:

### أ- التعريف

يجب، ليتخلّص التعريف من الدور والتسلسل، أن يكون قد وُضع وضعا ممتّقا متّما بالتعميم وفي استقلال عن الحالة «المعينة». فتعريف الديمقراطية يجب أن يُعطى من قبل وفي استقلال عن المشكل الذي يضعه البلد الفلاني الذي نتساءل هل هو يمثل ديمقراطية.

لكن قد يحدث أن يُقترح تعريف بالنظر إلى الحالة الخاصة التي هي موضوع النظر، فتكون هذه الحالة مشمولة حتما بهذا التعريف الذي يسمّى حينئذ تعريفا للغرض - إذا قدّ السهم طبقاً للهدف فمن المتحيل أن يُخطئ هدفه، وهكذا يصبح التعريف نفسه حجاجيًا.

إنّ التعريف الحجاجي يتمثل في تعريف لفظ بطريقة تجعل منه تعريفا يعبر عن أخذ موقف مناسب أو غير مناسب للشيء المعروف، مثال لذلك:

السؤال: هل البحث الجامعي بمعنى «البحث [الذي يقوم به مدرّسون جامعيون]» جيّد أم رديء؟

تعريف حجاجي: أسمّي بحثا جامعيّا كلّ بحث منقطع عن الواقع.

يقحم هذا التعريف السمة السلبية منقطع عن الواقع، ونقول إنّه يعيد تعريف الجامعيّ تعريفا حجاجيّا بحيث لا يمكن الإفلات من النتيجة التالية:

النتيجة: البحث الجامعيّ رديء.

### ب. إعادة التعريف

تمثّل إعادة التعريف شكلا من أشكال التصديّ للدحض، حيث تضطلع الصفة صادق بدور أساسي: جميع الألمان يحبّون الجعة.

لنا هنا قضية عامّة يتيسّر نقضها بقولنا مثلا:

إنّ صديقي هانس ذا النسب العريق والذي لم يغادر مونيخ قط يكره الجعة ويشرب الحليب.

لكن يكفي إعادة تعريف الألمان بأنّهم شاربو جعة فنقول:

ذلك أنّه ليس ألمانيّا أصيلا، فكل الألمان الأصليين يحبّون الجعة.

أما في حالة البحث الجامعي فإنّ من يعترض بالقول إنّ البحث الفلانيّ الذي قام به جامعيّ له تأثيرات هامة جدًا في الحياة اليومية، يُجَابُ بأنّ هذا البحث ليس جامعيًا حقًا.

### ج. الحجّة بأصل الكلمات وبإعادة تعريفها

إنّها حجّة تقوم على إعادة معنى كلمة متنازع فيها، وكثيرا ما يُتجد بأصل معنى الكلمة:

تتهموننا بالمَيز، لكن المَيز هو إدراك الفرق بصفة ذكية.

### 4. التطبيق على أشكال حجاجيّة أخرى

إنّ هذه الإشكاليّات مركزيّة لأنماط حجاج أخرى تقوم على تعريف الظواهر.

#### أ. مسألة الظروف

كان رجل بصدد الغرق، فدفعتني شجاعتني إلى الارتماء في الماء، فتعلّق بي الرجل مشرفا بنا على الخطر، فصرعته بضربة وجذبتّه خارج الماء، فقام عليّ بقضية بدعوى أنّني عنّفته.

توخّى السارد في هذه القصّة منظورا يُعرّف فعله بأنّه إنقاذ، وصّرعه للرجل الذي كان بصدد الغرق أمر ثانويّ، فهو وسيلة يشرّعها الهدف المقصود.

لكنه إذا لم يصب في حكمه على الوضع، وأنّ الشخص الذي يدّعي إنقاذه لم يكن في خطر، فإنّ ما لم يكن سوى

«ظرف إنقاذ» يصبح فعلا تعنيفا. والمشكل يكون أشدّ تعقيدا إذا تعلّق الأمر بغرق حقّا وكان العنف الممارس «غير متناسب» مع الهدف المقصود أي الإنقاذ.

إنّ ما هو جوهريّ وما هو ثانويّ في وضعية ما - أي السمات المخصّصة للتعريف والسمات الثانوية - هو موضوع «تركيب» خطابي حقّا ينبغي أن يُنظر إليه باعتباره شكلا حجاجيا للتعريف.

## ب. الحجاج حالة بحالة

السؤال: هل إنّ هذا المال مسروق ؟

العارض: هذا المال إمّا أنّك اكتبه بعملك، وإمّا أنّك ورثته، وإمّا أنّك سرقتَه. ولمّا كانت لك جراية موظّف، وكلّ أقاربك وأصدقائك في نعمة، فإنّك إذن قد سرقت هذا المال.

يقوم هذا الشكل من الحجاج على تعريف وضعية بتعداد الإمكانيّات التي تتضمّنها. فبعد تعريف الوضعية هكذا تعريفا «ما صدقيّا»، يقع النظر في كلّ إمكانيّة من الإمكانيّات التي تتكوّن منها لإلغاء جميعها باستثناء واحدة تعتبر مثبتة.

يجب، ليكون الحجاج حالة بحالة صحيحا، أن تُعرّف الوضعية تعريفا يستوعب كلّ مكوّناتها، فإن لم يتمّ ذلك فإنّه يمكن دحضها كالحالة السابقة:

كلّا، لم أسرق هذا المال، فقد ربحتَه من مضاربات رابحة جدّا في البورصة، لقد ربحت في سباق الخيل ....

+ في لون من التعريفات سيّار تُعرّف الوضعية على أنّها مأزق لا يترك مخرجا للخصم:

إِنَّا أُمَامُ أُمَرِينَ: إِمَّا أَنَّكَ كُنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ تَصَرُّفِ  
مَنْظُورِيكَ، وَإِمَّا أَنَّكَ لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ؛ فَإِذَا كُنْتَ عَلَى  
عِلْمٍ فَإِنَّكَ مُشَارِكٌ فِي تَصَرُّفِهِمْ وَعَلَيْكَ تَقْدِيمُ اسْتِقَالَتِكَ؛  
وَإِمَّا أَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى عِلْمٍ فَذَلِكَ مَعْنَاهُ أَنَّكَ لَا تَتَحَكَّمُ فِي  
تَسْيِيرِ مَصَالِحِكَ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَسْتَقِيلَ [أَيْضًا].





## الفصل العاشر

### موارِد اللّغة

تحتوي اللغة على خُطاطات حجاجيّة مسبقة البناء (الفقرة 1) ليس من اليسير إرجاعها إلى خطاطات شكلية ( $\Leftarrow$  الفصل الخامس).

في الخطابات البسيطة المكوّنة من حجة - نتيجة يمكن للربط بين الملفوظات (مل 1، مل 2) أن يتحقّق بعملية لغويّة بسيطة، فنحصل على مل 2 عن طريق «تحويل حجاجي» لـ مل 1 (الفقرة 2) ونلاحظ في هذه الحالة أنّه ليس من الممكن حذف الملفوظ النتيجة والملفوظ الحجة.

#### 1. خطاطات حجاجيّة مسبقة البناء

تتضمّن اللغة «منطقاً لغويّاً» ينظّم بعض التسلسلات:

الدمية تحت القبعة، والقبعة تحت الغطاء، فالدمية هي إذن تحت الغطاء.

لا يطبق بطرس تحمّل مريم، وستكون مريم هنا، إذن سيعتذر بطرس عن الحضور من أجل المرض.

كلاب البتبول (pittbuls) ضارية، لا أريدها إذن في بيتنا.

ويمكن أيضا أن نتحدّث عن «حساب حجاجي»:

أكل بطرس تفاحتين وإجاصة، فقد أكل إذن ثلاث ثمرات.

يسمح بالحساب طبقا لسلم تتراتب بمقتضاه الكلمات.

لا يعرف كيف يقوم بأبسط التمارين، فلا فائدة في اقتراح أصعبها عليه.

وهذه الحسابات تخضع للصدف التي يجرى بها الواقع.

إذا كانت الجرعة الواحدة لذيدة فالجرعتان الذا.

كأس من الخمرة لا ضير فيها، والكأسان مؤذنتان بالدمار.

أما حسابات الحجاج بواسطة المكوّنات فمعروفة:

أجزاء الأثاث بيضاء/خفيفة، فالأثاث إذن أبيض/خفيف.

## 2. الحجاج باعتباره تحويلا للملفوظات

### أ. شبه صياغة موازية حجاجية

نكون إزاء قول حجاجي مواز (إعادة الصياغة الحجاجية) حين نقدّم حجة لفائدة نتيجة وتكون الحجة قولاً موازيا لهذه النتيجة.

من المفروض علينا فعله لأنّ ذلك واجبنا.

يجب علينا أن نستقبلهم لأنّ ذلك واجبنا.

ينطلق هذا الشكل من ملفوظ مقبول ويُدخل عليه بعض التغيرات التي لا تبدل شيئاً من المعنى ويقدمه على أنه نتيجة.

كون الشيء واجبا  $\Leftrightarrow$  الواجب الأخلاقيّ

واجب  $\Leftrightarrow$  كونه واجبا.

فيكون الملفوظ النتيجة قولاً مُوازيًا للملفوظ الحجّة.

إنّ الصياغة الحجاجيّة الموازيّة التامة تدحض بسهولة باعتبارها مكافئة لتكرار لا تتمثل قيمته التبريريّة إلّا في اقتناع العارض.

وفي هذا الصدد يتحدّث المنطقة عن **تحصيل الحاصل**: «ق إذن ق»؛ وشكل الاستنتاج هذا صحيح في المنطق الصوريّ، في حين أنّه يمثل في الحجاج المعياريّ مصادرة على المطلوب، ودورا وتسلسلا قاصرا عن تمكين المعرفة من التقدّم أو توجيه الفعل.

\* أهمّ من هذا شبه الصياغة الموازيّة؛ فمن ناحية أولى تستوجب الصياغة الموازيّة الحجاجيّة على الأقلّ أن تغيّر الكلمات. ومن العسير جدّاً تغيير الكلمات دون المساس بالمعنى؛ ومن ناحية أخرى فالتغيير، رغم المحافظة على المادة المعجميّة الأساسيّة، يمكن أن يُدخل في المعنى تغييرات هامة، ولنا إذ ذاك شبه صياغة حجاجيّة موازية، أي «تحويل حجاجيّ» للملفوظ الحجّة.

نتلاعب بالصور والأصوات، فليس من الغريب أن يُتلاعب بنا نحن.

تكفي هذه التغيرات لإحداث فجوة وفارق دلاليّ بين الملفوظ الأوّل والملفوظ المشتقّ يمكن أن تكون له قيمة حجاجيّة حقيقة.

وبما أنّ هذه العملية تقوم على عمليات لغويّة فحسب يتخلص المعارض أنّ الأمر يتعلق بمجرد تلاعب بالكلمات.

### ب. الحجاج بالأضداد

الحجاج بالأضداد طريقة حجاج تتمّ بتحويل الملفوظ الحجة إلى ملفوظ نتيجة كما هو الشأن في المثال التالي:

السؤال: هل يجب أن نطلب من هؤلاء الناس أن يبقوا؟

العارض: كلا، فقدومهم لم نجن منه أية فائدة، ولا ينتج عن ذهابهم أية خسارة لنا.

السؤال: ما العمل للتقيص من البطالة؟

العارض: لنخفّض من نسبة الفائض، فالنسب المرتفعة تنجرّ عنها زيادة البطالة، وتخفيض نسب الفائض ينجرّ عنه نقصها.

• هذا التغيير يتمثّل شكليًا في:

- تبديل اللفظ الموضوع بنقيضه (نسبة فائض مرتفعة / نسبة فائض منخفضة).

- تعويض اللفظ المحمول بنقيضه أيضا (البطالة تزداد، البطالة تنقص).

فيكون رسم الحجاج الحاصل إذن:

أ، هو ق، إذن لا أ هو لا ق.

هذا الشكل من الحجاج يعتمد إذن على المحافظة على الصدق بضرب من النفي المزدوج، نفي الموضوع ونفي المحمول،

ومن المفروض أنّ كليهما يلغي الآخر، وإذا لم يكن لهذا التحويل أية صفة منطقية واقعية فإننا نرى أنه يسمح ببناء ملفوظ محتمل انطلاقاً من ملفوظ صادق، أي يسمح بالمحاكاة.

### ج- الرابطة الكنائية رابطاً حجاجياً

إنّ المولّد الحجاجيّ ذا الدرجة العالية من الخصوبة يستثمر علاقات المجاز المرسل:

لنا يوم الأحد حقّ اشتراء كتب، وإذن من المفروض أن يكون لنا حقّ اشتراء مكّبات.

فالكتب والمكّبات مترابطان بعلاقة مجاز مرسل كلاسيكيّ تتمثّل في محتوٍ / محتوًى، وكافية لإقامة حجاج مفاده أنّ «كلّ ما يصلح لهذا يصلح لذاك»؛ ويُمكن حجاج آخر من الانتقال من صنف من الأثاث إلى كلّ أصناف الأثاث قصد الإفضاء إلى النتيجة:

ينبغي أن يُسمح لمحلات الأثاث أن تفتح يوم الأحد.



## الفصل الحادي عشر

### التعيين واخذ المواقف

في الخطاب الحواريّ الأحاديّ تسمح آليات التعيين بإخفاء وجود حجاج مع تعمّف في النتائج (الفقرة 1). وتناقش الفقرة 2 لغة «العاطفة» والذاتية مع ربطهما بتعارض المواقف ووجهات النظر التي تخصّص وضعية الحجاج، ويبدو إذ ذاك وضع الظواهر في الحجاج وضعاً إشكاليّاً.

#### 1. الحجاج بصورة الخطاب الكلّية

##### أ. من الحجّة إلى الكلمة

لننظر في الخطاب التالي:

شتم بطرس بولس، ويجب أن يُعاقب

هذا يمثّل حجاجاً: فانطلاقاً من تفوّه بطرس بشتائم موجّهة إلى بولس، واعتماداً على القانون الذي ينصّ على أنّه لا يمكن للمرء أن يسبّ غيره بدون أن يُعاقب، نستنتج أنّ بطرس سيُعاقب. يضمّ هذا الخطاب الحجاجيّ إذن ملفوظين؛ لكنّ نفس الحجاج مكوّن لمعنى الملفوظات المعقّدة التالية:

بولس شتم من قبل بطرس فسيعاقب.

بطرس شتم بولس ومع ذلك فلن يُعاقب.

بطرس عوقب من أجل الشتائم التي تفوّه بها تجاه بولس.

عوقب بطرس لأنّه سبّ بولس.

وليس هذا الحجاج بأقلّ حضوراً منه في الملفوظ التالي.

الشتائم يعاقب

يُولد فعل شتم عن طريق الإسماء اسم الفاعل الشاتم: شتم < الشاتم. تسمح هذه العملية بالإحالة على بطرس من مجرد زاوية الشتم الظرفيّة؛ والسبب الذي حكم عليه من أجله بالعقاب (شتم بولس) متضمّن هنا تماماً في «الوصف المحدّد» الذي يعيّن بطرس («الشاطم»)، فهذا الوصف يحتوي وحده الحجّة كاملة؛ وقد اندست حرفياً في الاسم، ولذا فيكون من العسير دحضها.

• يجسّم هذا المثال ظاهرة عامّة جدّاً. إنّ الخطاب الحجاجيّ المثاليّ كما عرضناه (الفصل الرابع، 2) يتكوّن من ملفوظين متمايزين يُقيّم كلّ واحد منهما على حدة؛ فهذا الخطاب يعرف من أين يأتي (الحجّة) وإلى أين يذهب (النتيجة)؛ وكما رأينا فملفوظ وحيد بسيط يمكن له عن طريق آليات الإحالة والحمل أن يبرّر نفسه بنفسه، أي أن يجعل «من نفسه حجاجاً»، فلم يُعد حجّة ولا نتيجة، ولكّنه، إن جاز التعبير، حجاج قائم برأسه.



إنّ هذا الملفوظ «الجاعل من نفسه حجاجاً» يكتب وضعاً يمتّ بصلة إلى الملفوظات المسمّاة «تحليليّة»، فالملفوظ التحليليّ ملفوظ له الشكل التالي:

الأعزب هو بالغ غير متزوِّج

إنّ الملفوظات التحليليّة صادقة بمقتضى المواضع التي يُعبّر عنها في معنى الكلمات، فليست قابلة للنقاش اختباريّاً، أي باعتماد واقع الأشياء.

• لهذه الظاهرة نتائج بالنسبة إلى مدخوضيّة الحجاج الشائع. لقد رأينا (⇐ الفصل الرابع، 3) أنّ الخطاب يُدحض عندما يتعدّز الدفاع عنه، والملفوظات التحليليّة يمكن دائماً «الدفاع» عنها لأنّها دائماً صادقة، فهي ملفوظات، إن جاز التعبير، تترك اللغة تتكلّم، إنّ الملفوظات التي تحتجّ لنفسها تُحدث نفس الأثر.

ينطلق الخطاب العلميّ من ظواهر وحقائق تمّ إقرارها بإحكام، ويعتمد على مناهج استنتاج ثابتة، وبهذه الطريقة يتوصّل إلى نتائج متينة؛ وقد أمكن القول إنّ الخطاب يكون علميّاً عندما يقبل أن يُعرّض نفسه للدحض، ومن الضروريّ جدّاً بالنسبة إلى الخطاب الذي يدّعي الاستجابة لشرط قبول الدحض هذا أن يفصل فصلاً دقيقاً بين الظواهر التي يعتمد عليها والنتائج التي يبلغها؛ وتوفّر اللغة الطبعيّة للحجاج الشائع وسائل الإفلات من هذه الضرورة.

### ب. من الكلمة إلى النتيجة

إذا لزم أن يُبرّر استعمال بعض الكلمات فذلك لأنّ له نتائج، فالذي يسمّى يضطلع بالتزامات خطائيّة، والأسماء لا تُعيّن

الأشياء فقط، فهي تعيّننا من بعض وجهات النظر، فهي في الوقت الذي تعيّن فيه تقتضي محمولات تربطها بالكائنات. عندما نسم الشخص س بأنه عنيف فإنني أعلق به سلسلة من القوالب الجاهزة؛ فالعنيف إنسان خطر يجب أن يحتمي المرء منه وأن يتم التحكم فيه وأن يُسجن بل وحتى يُصرع، فإن لم تحدّد هذه القوالب الجاهزة ضروباً من السلوك فإنها على الأقلّ توجه الخطابات.

• لنقف عند الرأي التالي حول معنى الكلمات.

تغمرنا لغتنا بلا استمرار بجميع أنواع المذاهب.

يقدر استعمال فعل غمر خطاب مقاومة لنزعة اللغة هذه؛ وإذا ما عوّضناه بكلمة وفرّ أصبح خطاباً غايته، على عكس ذلك، حَمَلنا على الاستجابة لهذه الدعوة قصد الاستفادة منها. إنّ استعمال كلمة «غمر» يختصر إذن «مذهبا بأكمله»، ويوجه الخطاب نحو أطروحة يعلن عنها ويلخصها.

• هذه الطريقة هي التي تجعل من التسميات الاستعارية وسائل حجاجية رهيبية. فإذا ما نعتُ أحداً بأنه حشرة فإنني أجعله عرضة لكلّ القوالب الجاهزة والتهديدات التي ترتبط عادة بالهوام؛

«إذا كان المساجين حشرات فمن المنطق أن يُقتلوا بالغازات السامة، وإذا كانوا متخلفين فإنه ينبغي أن نمنع عدوهم من التسرّب إلى السكّان؛ وإذا كانت لهم «نفوس العبيد» (هملر)<sup>36</sup>، فلا ينبغي لأحد إضاعة وقته في إعادة تربيتهم» (هـ أرندت «H. Arendt»، النظام الكلياني)<sup>37</sup>.

36 هملر (Himmler) (1900 - 1945)، رئيس القاستبو، ووزير داخلية النظام النازي في ألمانيا، وقد عرف بقمعه لخصوم النازية والقضاء على اليهود.

H. Arendt, *Le Système totalitaire*, éd. du Seuil, coll. «Points», 37

## ج- النتيجة

للكلمة إذن وظيفة مزدوجة، فهي تسمّى وتوجّه؛ وبالأحرى، هي بتسميتها الأشياء بطريقة معيّنة، تكشف اتّجاه الخطاب، فهي بهذا عاكسة لصورة الخطاب الكلية.

## 2- انعكاسات التناقض على التسمية

### أ- الانفعال

كيف نؤوّل العبارة «هذا محال» في المداخلة التالية:

إنّ اقتراحا محالا مثل هذا لا يمكن لجميع الناهبين  
إلاّ رفضه !

من المفروض حسب اللعبة الحجاجيّة أن يأتي المعارض بحجج ضدّ الموقف الذي يهاجمه أو أن يدحض حجج المعارض. وهو بوصفه هذا المقترح بأنّه محال لا يقوم إلاّ بإعادة تأكيد رفضه له.

واضح أنّ مفهوم اقتراح محال هو مفهوم سجاليّ، وفي أقصى الحالات فإنّ الاقتراح المحال اقتراح لا يحمل الأطراف الأخرى على أيّ تساؤل، وإذا ما أيدّ الاقتراح بجدّ أحد الناس فإنّه لا وجود لاقتراح محال.

+ يستعمل الخطاب الموالي بانتظام لغة تسمّى «منحرفة»، «محمّلة بالمعاني» «موسومة انفعاليّا»:

هؤلاء القوامون على العدل، الذين نصّبوا أنفسهم في هذه المهمّة، ويدّعون الدفاع عن المحيط، ويندفعون في حملات جنويّة، لا يفعلون شيئا آخر سوى التعبير

عن قصورهم عن إدراك رهانات عصرنا الاقتصادية الحقيقية.

الأثر الأول لاستعمال ألفاظ جارحة هو أن يجعل النقاش أمراً مستحيلاً، وينحرف بالجدال حول صلب الموضوع نحو مسائل تتعلق بالأشخاص، فلنا هنا وسيلة ناجعة للتخلص من الحجاج، وذلك يجعل التفاعل اللغويّ ينحرف نحو الملاكمة غير اللغوية.

+ بصفة عامة فكل ردود الفعل من الصنف المُوالي والتي تتلو اقتراحاً من الاقتراحات تقع تحت طائلة هذا التحليل.

- يا للروعة !

- يا للسخافة !

وتُحلل على أنّها تعني على التوالي نعم أو لا (أوافق أو أرفض)، وتكون مشفوعة بواسمات التأكيد والذاتية (الانفعال) الإيجابية أو السلبية وبمعزل عن الحجاج.

**أ. هل يمكن تقييد اللغة ؟**

إنّ من شأن تأسيسنا للحجاج على ضرب من العقلانية الأحادية الحوار أن يحملنا على القول بأنّ اللغة الانفعالية المعرقة لمعالجة المشاكل معالجة جذرية يجب أن تُقصى من الخطاب الحجاجي. ومن الأجدى تحليل هذه اللغة باعتبارها تجليات لرؤى مختلفة تمثل جوهر الوضعية الحجاجية، فذلك شرط من شروط ممارسة الحجاج الشائع.

+ من شأن اجتناب اللغة «المشحونة» أن يؤدي إلى تنقية اللغة قصد تحقيق الموضوعية. ففي لغة أنصار الإجهاض تُستعمل

كلمة جنين<sup>38</sup> حيث يتحدث المعارضون للإجهاض عن رَضِيع<sup>39</sup>؛ وبما أنَّ الأمر يتعلق عموماً بإمكانية إسناد حكم الآدمي لموضوع النقاش نرى أنَّ الجدل حول اللفظ لا يفصل هنا عن الجدل حول صميم المسألة، وعلى الصعيد العملي فإنَّ «المتصر» يُعرف من خلال تمكّنه من فرض ألفاظه طبقاً للمعنى الذي يروق له.

+ ليس من الممكن إذن أن نظفر بدواء «للغة المنحرفة» عن طريق مواضعة تتمثل في الاتفاق على معاني الكلمات اتفاقاً يسبق الجدل الذي ستعمل فيه، كما تتمثل في اجتناب الألفاظ «المشحونة» لفائدة الألفاظ «المحايدة»، فالمنهج السليم يقتضي بلا شكّ توخّي هذا السلوك قدر المستطاع. لكنّه من العسير العمل بهذه التوصية في بعض المجادلات وبالنسبة إلى بعض الكلمات الحاسمة، فالنقاش حول طبيعة الشيء لا يفصل عن النقاش حول اسمه، فكون الشيء يمثل رهان الجدل يجعل تسميته تسمية مزدوجة، فاسمه «الحقيقي» «الموضوعي» ربّما يُسند إليه في نهاية الجدل - فالموضوعيّة ليست شرطاً للجدال وإنما هي نتيجته.

+ إنّ البحث عن ألفاظ «محايدة» تنمّ، من ناحية، عن الرغبة في وضع اللغة بين قوسين إذا لم تتماش مع مثل أعلى إحصاليّ نقّي، وتنمّ من ناحية أخرى، وربما بصفة أعمق، عن إرادة اعتبار أنَّ الجدل بين أشخاص عقلايين لا يمكن أن يقوم إلّا على

foetus - 38

bébé - 39

سوء التفاهم الذي يمكن تجاوزه بالرجوع إلى المعجم وتطبيق قواعد ملائمة.

### ج. التعارض الخطابي والاستقطابية المعجمية

لننظر في هذين المثالين:

1 - Pierre est serviable (بطرس خدوم)<sup>40</sup>

2 - Pierre est servile (بطرس خديم).

هل يصف هذان المثالان ضربين من السلوك أم نفس السلوك؟ يمكن تبني الموقفين:

هما يصفان سلوكين اثنين، ويمكن في هذه الحالة أن تصف كلمة servilité طريقة في السلوك مختلفة عما تفيد كلمة serviabilité: أن يُعين المرء جدّته على تقطيع الفروج فمعناه الاستعداد للمساعدة، وأن يقترح عليها القيام بتنظيف أرضية البيت من شأنه أن يمثل سلوك الخدم. فكل نوع من السلوك مرتبط بقيمة خاصّة مختلفة: إيجابية بالنسبة إلى serviabilité، سلبية بالنسبة إلى servilité. وإذا تعلّق الأمر بتحديد طبيعة سلوك بطرس ينبغي الالتفات إلى الواقع.

يمكن أن نعتبر أنّ هاتين الكلمتين تصفان سلوكا واحدا، لكّنه يحمل على تدخّل وجهتي نظر حوله، أي ضربين من الذاتية، أو حُكمين قيميّين. أبدي حكما إيجابيا حول هذا السلوك فأقول *Pierre est serviable* (بطرس خدوم) وأبدي حكما سلبيا بقولي: *Pierre est servile* (بطرس خديم). الواقع لا يقول شيئا عن

40 أثبتنا المثالين في لغتهما الأصلية لأنهما يتضمّنان كلمتين مشتقتين من أصل واحد وإن كانا يفيدان معنيين متناقضين، ولأنّ التحليل قائم على هذا الفرق.

المساعدة (serviabilité) ولا عن سلوك الخدم (servilité).  
فليس مصدر التمييز في الواقع وإنما في إرادة المتكلمين.  
فكل ما يمكن قوله في الملفوظين 1 و 2 هو أنهما يُحدثان  
عند المستمع انتظار خطابين متعارضين.

+ إنَّ المقابلة التي تتغلَّها الخطابات / والخطابات المعاكسة  
يعكسها تصريح الكلمات كما هو الشأن في ما يلي:

politicien (سيا سويّ) / politique (سياسيّ)

scientifique (علميّ) / scientifique (علمويّ).

لهذه الأمثلة حكم المتعارضات كما هو الشأن في علم  
/ جهالة.

يمكن كذلك أن نُدخل بواسطة الخطاب قوالب  
سلوكيّة جاهزة متعارضة: أنت الجلاد، وأنا الضحية، هو الثريّ  
الشرير، وأنا الفقير لكنتي نزيه.

يمكن أخيرا لهذا التعارض أن ينشأ عن تراكيب مرتبطة  
ارتباطا محضا بخطاب خاصّ ومن شأنها أن تتسع حواريا فتجَم  
في مجموعات مستقلة.

صيد التدرج رياضة الظرفاء !

صيد التدرج مجزرة يقترفها وحوش مخمورون !

## د. المقولة الحجاجيّة ومشاكل التبئير

إذا رأيتُ في مناطقنا حيوانا معاشرًا للبشر ذا عينين وقادتين،  
يكره الفئران ...، أستتج من ذلك أنّه قطّ ؛ لا تطرح عملية  
«المقولة» هذه مشاكل كثيرة في ما يخصّ النباتات والحيوانات

وغيرها من «الأجناس الطبيعية». لكن الأمور أشدّ تعقيدا في ما يخصّ الحجاج باعتبار أنّه يتصدّى لألفاظ ليست «مقاييس» التعين فيها محدّدة أو هي محدّدة تحديداً غير محكم في مجالات. هي المجالات التي يمارس فيها الحجاج بحقّ.

ما هي، على سبيل المثال، المقاييس التي أعتبر حمبها شخصا ما «إرهابيا» أو «مقاوما»؟ فهل المقاوم هو إرهابيّ نجح، والإرهابيّ هو مقاوم قضيتة خاسرة؟ لننظر في الحدث الموالي. تنفجر سيارة مفخخة أمام مقرّ سفارة مخلّفة أربعة موتى، الجنديّ القائم بالحراسة وموظّفة وشخص كان يمرّ صدفة و«المناضل» «زارع القنبلة» نفسه. فهل ينبغي أن يُعتبر هذا الفعل فعل إرهاب (جباناً) أم عمل مقاومة (بطوليّاً)؟ فهل نقول إنّ الأمر رهين المعسكر الذي يتّمي إليه المرء؟ ما هو العنوان الذي يظهر على كامل الصفحة الأولى، وفي أيّ الصُحف الصادرة في اليوم الموالي للانفجار؟

### 3. النتائج

إنّ وضع الحجاج بسيط نسبياً إذا ما انطلقنا من الفرضيّة التي بمقتضاها توجد معطيات مسلم بها من قبل الطرفين. لكنّ الكلام عن الظواهر لا ينجّر عنه بصفة عامّة اتّفاق إلا إذا كانت الظواهر التي يحتجّ بها خارجة عن صلب الجدل الحجاجيّ. وفي الحالة المعاكسة فإنّ الاختلافات بين الخطابات تبرز جذريّاً بواسطة التسميات المسمّاة انفعاليّة، فالاتّفاق على تعيين الظواهر باللغة راجع إلى هويّة تثير «التجاوب الانفعاليّ»، فالمرء لا «يسلم» بالأحداث أقلّ ممّا يسلم بالمعتقدات.



## الفصل الثاني عشر

### الحجاج في اللغة

ترى كلّ التّصوّرات القديمة والكلاسيكيّة في الحجاج تقنية واعية تتجسّم في برمجة التنسيقات الخطابيّة. أمّا نظريّة الحجاج «في اللغة» التي وضعها ج.ش. أنسكومبر (J.C. Anscombe)، وأو. دوكرو (O. Ducrot) منذ منتصف السبعينات، فتهدف إلى تحقيق أغراض مختلفة؛ وقد وُضعت هذه النظريّة في إطار لسانيّات الجملة، وذلك بمقتضى مناهجها وبمقتضى قضاياها وأغراضها. وفي مثل هذا المنظور أعيد تحديد مفهومي الحجّة والحجاج تحديدا جذريّا إلى درجة أنّهما أصبحا، من بعض الجوانب الأساسيّة، مختلفين عن المفاهيم الكلاسيكيّة بل صارا متناقضين معها.

#### 1. «معنى» الكلمات

وُضعت نظريّة الحجاج في اللغة انطلاقاً من تحليل «الكلمات الفارغة» أي الروابط التي سننظر فيها في الفقرة 2، وهي تُطبّق على «الكلمات الملاءى» التي تقدّم تحليلاً لها قائماً على التوجيه الذي توفّره للخطاب.

## أ. المواضع

لننظر في كلمة **مُهمّ**؛ يمكن أن نعتبر أنّ شيئاً ما **مُهمّ** إذا كانت له خصائص تقابل بينه وبين الأشياء غير المهمة. يمكن كذلك أن ننظر في هذا الملفوظ:

### 1- هذا الشريط **مُهمّ**

على أنّه حجة لا ترمي إلى نتيجة واحدة، وإنّما ترمي إلى مجموعة من النتائج كقولنا: **عليك أن تشاهده أو أن تشتريه أو أن تمنحه جائزة أوسكار**<sup>41</sup>. يتّج عن هذه الوجهة أنّ المحمول **مهمّ** لا يحيل على خاصيّة للشريط، وإنّما يتضمّن مجرد تلميح إلى «فكرة مشتركة» (موضع) تسمح باستنباط بعض النتائج لدى مجموعة لسانيّة. فعلى هذا النحو يُعرّف الموضع بأنّه أداة لغويّة تربط بين بعض الكلمات وتنظّم الخطابات الممكنة، وتحدّد الخطابات «المقبولة» والمتناسقة في هذه المجموعة: ففي العالم العاديّ إذا دار النقاش مثلاً حول المطعم الذي يمكن أن يتناول فيه المرء العشاء وإذا قال أحدهم:

### 2- هذا المطعم جيّد

فإنّه ينصح بالذهاب إليه، وبعبارة أخرى فإنّ الملفوظ 3 نتيجة ممكنة يرمي إليها الملفوظ 2:

### 3- اذهب إليه

ويكون الخطاب الأحاديّ الحوار النموذجيّ هو:

---

41 Oscar: هو اسم جائزة متجسمة في تمثال صغير يُمنح كل سنة في مدينة هوليوود إلى أحسن الممثلين والتقنيين السينمائيين.

4- هذا المطعم جيّد، اذهب إليه !

وإذا ما قلنا خلافاً لذلك:

5- هذا المطعم باهظ الثمن !

فإنّنا ننصح بعدم الذهاب إليه.

6- لا تذهب إليه.

والملفوظ 7 هو الخطاب الأحادي الحوار النموذجي.

7- هذا المطعم باهظ الثمن، لا تذهب إليه.

### ب - المعنى بصفته اتجاه

هكذا يُعتبر الملفوظان 3 و 6 التيجين اللتين يرمي إليهما الملفوظ ن 2 و 5. ويمكن أن تظّل هاتان التيجتان ضمنيّتين تماماً، ولهما أيضاً خاصيّتا ارتباطهما ارتباطاً تاماً بمعنى كلمتي جيّد وباهظ (عندما يقالان في شأن مطعم)؛ ومرةً أخرى فليس لكلمتي جيّد وباهظ، حسب الصيغة الجذريّة لنظرية الحجاج في اللغة، معنى إحاليّ، فهما لا تطابقان أيّ وصف من أوصاف المطعم، وكلّ معناهما متضمّن في مجموع النتائج التي تمكّنا من بلوغها، والتي منها خاصّة التيجتان: إذهب إليه مقابل لا تذهب إليه.

يقوم هذا التحليل على تصوّر للمعنى يكاد يكون فضائيّاً: فمعنى الكلمة لا يُطلب في مطابقته واقعا مادّيّاً أو ذهنيّاً، وإنّما يُنظر إليه على أنّه اتجاه: ما أريد قوله، ما أتّجه إليه (النتيجة التي أتّجه نحوها) - يقول مثل صينيّ بطبيعة الحال إنّّه حين يُشير الحكيم إلى النجوم ينظر المجنون إلى الإصبع، فليست

الدلالات «في» الكلمات وإنّما هي في الإطارات الخطائية التي تشكّلها الكلمات سلفاً وتلقّيها بعد ذلك على ما يتلو الخطاب. هذا هو المعنى الذي بمقتضاه تعني دلّ احتجّ في نظرية الحجاج في اللغة.

## 2. الروابط

إنّ العلاقة بين الروابط والحجاج معروفة تمام المعرفة. يحلّل الرابط لأنّ تقليدياً على أنّه يفتح باب الحجاج، وأنّ إذن ولذا يفتحان باب النتائج. ويمكن للتحليل الحجاجي للروابط أن يوسّع ليشمل روابط جديدة ويوضّح ظواهر جديدة.

### أ. تعريفات

إنّ الرابط كلمة تعليق وتوجيه يصل بين معلومات نصّ وحججاته، ويضع خاصّة ما في النصّ من معلومات في خدمة مقصده الحجاجي الشامل.

### ب. دراسة حالات

#### • لكن

لنأخذ رابطاً نمطيّاً هو **لكن** ولتتدبّر الملفوظ التالي الذي يجمّع مثال البنية الأساسية «ق، لكن ك».

11 - هذا المطعم جيّد (= ق)، لكنّه باهظ الثمن (=

ك).

في نظر المنطقيّ تدلّ **لكن** باعتبارها رابطاً منطقيّاً على نفس ما تدلّ عليه و، فالملفوظ 11 صادق إذا وإذا فقط كان المطعم

في آن واحد باهظ الثمن وجيِّداً، فدلالة الملفوظ «ق» ، لكن كـ «متضمّنة تماماً في مكافئه (أ):

(أ) الملفوظ «ق» ، لكن كـ «صادق إذا وإذا فقط

كانت «ق» صادقة و«ك» صادقة

وكلّ الاعتبارات الأخرى حول «تشقيقات معنويّة» تناط بـ لكن تدخل في باب الاعتبارات النفسانيّة أو حتّى البلاغيّة، وهذا أذهى إذا أمكن، في نظر المنطقيّ. يعتبر إدراك حدسيّ كلاسيكيّ للبنية «ق»، لكن كـ «أنّها تعبّر عن «تعارض»، وهذا الحدس صحيح أساساً، لكنّ هذا التعارض لا يمكن أن يكون بين القضيتين «ق» و«ك»: «فلا يوجد من سوء الحظّ تعارض بين «ق» = «كونه جيّداً» و«ك» = «كونه باهظ الثمن»، عندما يتعلّق الأمر بالمطعم، فما هي إذن طبيعة هذا التعارض؟ لنطبّق على هذين الملفوظين نظريّة الدلالة التي أدخلناها سابقاً.

- ق ترمي إلى النتيجة ن (اذهب إليه !)

- ك ترمي إلى نتيجة معاكسة لا - ن ((لا تذهب إليه)).

يتميّز التركيب الشامل (ق لكن كـ) بأنّه يرمي إلى نفس النتيجة التي يرمي إليها مكوّنه الثاني كـ، وبعبارة أخرى فهذا التركيب له قيمة كـ الحجاجيّة نفسها. فهو مُصَوَّب إذن نحو النتيجة: اذهب إليه.

تفي هذه النظريّة بالفرق بين «ق، لكن كـ» و«ك» ، لكن ق»؛ ولنلاحظ أنّ منطقاً للصدق يماثل بين معنى التركيبين: إذا كان كلّ من «ق» و«ك» صادقاً فالتركيبان صادقان

والسلام. لتنظر الآن في زوج الملفوظين حيث غَيَّرْنَا مرتبة «ق» و«ك».

12- هذا المطعم جيّد ولكنّه باهظ الثمن

13- هذا المطعم باهظ الثمن ولكنّه جيّد.

نلاحظ أنّ الملفوظ 12 يمكن أن يكون متبوعاً بالملفوظ لا تذهب إليه؛ لا بالملفوظ لنذهب إليه، ولذا فالملفوظ 14 هو وحده ملفوظ حجاجيّ محكم التكوين (في المقامات العادية) لا الملفوظ 15.

14- هذا المطعم جيّد لكنّه باهظ الثمن، فلا نذهب إليه !

15- \* هذا المطعم جيّد لكنّه باهظ الثمن فلنذهب إليه !

والعكس صحيح بالنسبة إلى 13، فالخطاب 16 محكم البناء لا الخطاب 17.

16- هذا المطعم باهظ الثمن لكنه جيّد فلنذهب إليه !

17- \* هذا المطعم باهظ الثمن لكنّه جيّد، لا نذهب إليه !

لنلاحظ هنا أنّ البنية «أ هي حجة لـ ن» ينبغي أن تُفهم بأنّها تعني أنّ «الخطاب أ+ ن منسجم نحويّاً»؛ وينبغي أن نلحّ على أنّنا تماثل هنا بصفة منتظمة بين النتيجة هدف الملفوظ مل والملفوظ

الذي يلي مل في خطاب حواريّ أحاديّ نموذجيّ؛ وهكذا يصلح مفهوم الحجّة لوصف الخطاب المحكم التكوين نحوياً.

+ فعلا (Justement)

يمكن أن يكون للرديف<sup>42</sup> justement (فعلا) عديد القيم، ففي ملفوظ كالتالي:

قُدرت الأضرار تقديرا عادلا.

فإنّ ن الرديف «فعلا» يُؤدّي معناه عن طريق الصياغة الموازية بالعبارة «بطريقة عادلة» (d'une manière juste). وتكون له في استعمالات أخرى قيمة مغايرة. لننظر في التحوار الموجّه بالسؤال: «هل سيخرج العارض هذا المساء؟»:

المعارض: لن تخرجي هذا المساء، فقد انتظرت أختك بلوغ السادسة عشرة!

العارض: فعلا، وقد رأينا نتيجة ذلك.

يبرّر المعارض رفضه بحجاج يمكن أن يفكّ كالتالي:

- الحجّة: انتظرت أختك لتخرج مساء بلوغ سن السادسة عشرة.

- النتيجة: لن تخرجي هذا المساء.

- الضمني الفعلي: المعارض لم يبلغ سن السادسة عشرة.

42 الرديف (adverbe) هو في الفرنسية قسم من أقسام الكلام يكيّف أو يوجه معنى الصفة والفعل، وليس في العربية قسم يعتبر مثيلا له، ويترجم المعنى الذي يؤدّيه عادة في سياق الكلام بالمفعول المطلق المنعوت، أو بعبارات من نوع جدّا أو صفات مضافة إلى اسم مثل شديد، كثير، قليل، ضئيل...

- الضمنيّ الحجاجي: قانون عامّ من صنف أنّه «ينبغي أن يُعامل أبناء نفس العائلة بنفس الطريقة».

يدحض المعارض الرفض بقلب هذا الحجاج [على النحو التالي]

- إنّه موافق على الحدث المقدّم حجة.

- ولكّنه يتخلص من نفس الحدث هذا النتيجة الضمنيّة المعاكسة: عليك أن تتركني أخرج هذا المساء.

- الضمنيّ الفعليّ [ويتمثل في]: قصّة الأخت الأليمة التي طالّت معاكسة حرّيتها.

- الضمنيّ الحجاجيّ [ويتمثل في]: شكل حجاج بواسطة النتائج: «الإجراء الذي له عواقب سيّئة يجب أن يُصلح».

- الرديف *justement* (فعلاً) عامل نموذجيّ لعملية القلب التي هي أساس العلاقة الحجاجيّة، وهو إذن أداة حجاج رهيبية، فأمام حجاج لا يعرف المرء بماذا يردّ عليه، يمكن له في كلّ الحالات أن يقول «فعلاً»، «فعلاً» ممّا يوحى بأنّ الأحداث التي يذكرها الخصم ليست في صالح نتيجته، وإنّما هي في صالح النتيجة المعاكسة.

### 3. الحجاج دلالة قصديّة

#### أ. علم دلالة الخطاب المثاليّ

الغاية الأساسيّة لنظرية الحجاج «في اللغة» هي وضع نمط في علم الدلالة جديد، وهذه الدلالة دلالة قصديّة أساساً، لكنّ الأمر يتعلّق بمفهوم قصد لغويّ لا نفسانيّ. فمن الممكن أن



يقول المرء «أدعوك إلى زيارتي» عن قصد نفسانيّ يتمثل في نصب فتحٍ لمخاطبه، لكنّ الملفوظ يعبر مع ذلك عن نوايا ودّية لغويًا. ففي الحالة السابقة مثلاً فإنّ دلالة جَيِّد<sup>43</sup> توجد بتمامها في قصديّ النصّ بالذهاب إلى المطعم، أي في النتيجة: لنذهب إليه! ففي هذا المعنى اللغويّ فحسب تُستخدم نظريّة الحجاج في اللغة ألفاظ القصد، وينتج عن هذا أنّه لا يمكن، في هذه النظرية، تقديم تحليل دلاليّ لملفوظ منعزل، فالمعنى ليس موجّها نحو الفكر أو الواقع وإنّما هو موجّه نحو مواصلة الخطاب؛ لذا نتحدّث في هذا الصدد عن «دلالة خطاب مثاليّ».

يربط مفهوم الحجة المصادرة القصديّة بالتوجيه الذي يطبع الخطاب حسب الطريقة الموالية: إنّ المخاطب «المثالي» هو القادر على الانتقال بلا تردّد إلى الملفوظ الموالي؛ فكلّ ملفوظ يوجّه المخاطب وجهة خطابيّة معيّنة، أي نحو «س» معيّن؛ أن يفهم المرء متكلّماً ما معناه أن يُدرّك ما يريد قوله وأن يفهم نواياه وأن يتوقّع كيفية مواصلته لخطابه وأن يتوقّع نتائجه، وبكلمة واحدة أن يفهم ذلك الـ«س» الذي يرمي إليه والذي من أجله تُلفّظ بذلك الملفوظ. أن يفهم المرء ملفوظاً يعني أنّه قادر على إدراك معناه، أي النوايا التي يعبر عنها لغويًا، أي النتائج «س» التي يكونها سلفاً. أن يفهم المرء ملفوظاً معناه أنّه قادر على مواصلة الخطاب الذي ينتمي إليه، وأنّه، إن لم يكن قادراً على التصريح بالملفوظ الموالي، يكون على الأقلّ قادراً على تقديم صورة هذا الملفوظ الدلالية (دائماً في خطاب مثاليّ أحاديّ الحوار)، والـ«س» هذا هو الذي يعطي مدلول «النتيجة»

43 و وصف للمطعم في مثال سابق ورد في أوّل الفصل.

في نظرية الدلالة الحجاجية القصديّة: وإذا كان ذلك هو النتيجة فالملفوظ الذي يوجّه إذ ذاك المتكلّم نحوها يكتسب حتما وضع «الحجّة».

إجمالا فإنّ معنى ملفوظ ما (أي معنى حجّة حسب التعريفات السابقة) يوفّره الملفوظ الموالي (دائما في خطاب مثاليّ أحاديّ الحوار)، أي نتيجته، وتحيل هذه النتيجة على نوايا المتلفّظ (اللغويّة)؛ ومعنى الملفوظ هو صورة لتلفّظه. وباختصار فإنّ المعنى أي «القصّد» محدّد هنا باعتباره السبب النهائي للملفوظ.

إنّ قوّة الإلزام الحجاجي، حسب هذه النظرية، هي بتمامها مسألة تابعة للغة، وهي لا تختلف عن قوّة الخطاب المنجم؛ فإن يرفض المرء حجّة معناه قطع تسلسل خطاب مثاليّ.

## ب. الحجاج ونشاط الكلام

ليست مسألة علاقات هذا تصوّر للحجاج بالتصوّرات الكلاسيكية مسألة هيّنة، ومن الممكن بيان أنّه تتعذّر المماثلة بينهما مبدئيّا. يوجد فرق أساسيّ يتمثل في أنّه لا يمكن، في تصوّر اللسانيّ للحجاج إعطاء معنى لفكرة تقييم الحجج، فنشاط الحجاج مزامن لنشاط الكلام، فما أن يتكلّم المرء حتى يحاجّ.

تبيّن نظرية الحجاج في اللغة بقوّة خاصّة أنّ اللغة ليست شفّافة وأنّ الحجاج، باعتباره منطق تسلسل الملفوظات، لا يمكن أن يُحصّر في منطق الفكر أو الأشياء.

## الفصل الثالث عشر

### الحاجات المرتبطة ببنية التفاعل

الحجاج مجابهة على نحو سجالي أو تعاوني بين خطاب وخطاب معاكس يدوران على مسألة واحدة، وهو ما يثير في نهاية المطاف مشكلة ما يدركه كلا المتحاجين من خطاب الآخر (الفقرة 5). لقد رُصد الواقع التفاعلي للحجاج في العصر الحديث من قبل لوك (Locke) <sup>44</sup> (الفقرة 1) وذلك لإبطاله. وسننظر في ثلاثة أشكال حجاجية تحدث «قبل» التفاعل: الحجاج القائم على القوة، ومشكل إقامة الحجة والحجاج القائم على الجهل (الفقرات 2، 3، 4).

#### الحجاج المسمى بعبارات صدارتها (ad...) <sup>45</sup>

\* يقابل لوك (1632 - 1704) بين الحجاج العلمي وثلاث طرق حجاج أخرى «تعوّد الأفراد استعمالها عندما يجادلون أفراداً

---

44 لوك فيلسوف إنكليزي مثل للاختبارية الانقلوسكسونية، وباعث التحررية السياسية التي تعتبر أنّ المجتمع يقوم على التعاقد وأنّه يجب على السلطان أن يخضع للقانون.

45 زائدة لاتينية تفيد معنى على.

آخرين قصد حملهم على مشاركتهم المشاعر أو على الأقلّ على ملازمة نوع من الاحترام يمنعهم من معارضتهم» (رسالة فلسفية في الإدراك البشريّ 1690)<sup>46</sup>. وهذه الأشكال الثلاثة المعبرة غير سليمة (تُعيّن أحيانا باسمها اللاتينيّ) هي:

-الحجاج المركّز على الشخص (*ad hominem*)

-حجاج السلطة (*ad verecundiam*)

-الحجاج المركّز على الجهل (*ad ignorantiam*)

يقابل لُوكُ بين هذه الحجاجات والحجاج (*ad rem*) المحيل على الأشياء نفسها وموضوع الجدل وأصله لا على المتجادلين، فهذا الحجاج لا يتعمل إلا القدرات المعرفيّة، ويتوجّه نحو حكم العقل (لذا يُسمّى أيضا حجاج *ad iudicium*)، ويبرز لُوكُ أنّ هذا الشكل من الحجاج هو وحده القادر على تنمية معارفنا.

• تشترك الحجاجات المركّزة على الشخص والسلطة والجهل في أنّها لا يمكن تحليلهما خارج التفاعل ومن ثمّ خارج مصالح المتكلّمين المشاركين فيها، ويمكن أن نستج من هذا أنّ «التحاور» الوحيد المقبول، عند لُوكُ، هو تحاور الحكم والأشياء والعقل في مواجهة الطبيعة.

• انطلاقا من تصنيفات لُوكُ، وقد واصلها بنتهام (Bentham)<sup>47</sup> (القياسات المغالطيّة، 1824)<sup>48</sup> يمكن لنا أن نكتّر أنماط

46 *Essai philosophique concernant l'entendement humain*

47 بنتهام (1748-1832) فيلسوف ورجل قانون انكليزيّ.

48 *The Book of Fallacies*

## الحجاج

الخطابات غير السليمة والمبدوءة أسماؤها بـ *ad*، وقد وضع لها همبلان (Hamblin) مسردا عظيما، وما انفكّ محلّلو القياسات المغالطيّة يقترحون مسارد جديدة لها.

لكنّ هذه القوائم تبعث في المرء الإحساس بالخداع، إذ يمكن أن نُرجع في الواقع القياسات المغالطيّة المبدوءة بـ *ad* إلى مبدأ تنظيميّ واحد: فهي راجعة إلى حضور «الإنسان في اللغة»، أو حضور المحاجّين في الحجاج. تُنظّم هذه القياسات المغالطيّة حول حظر مرتبط بالمنهج العلميّ: يجب ألاّ تتدخل ظروف تلفظ الملفوظ في قيمة صدق الملفوظ، وبديهي أنّ هذا الحظر له صلة بمقاربة مخصوصة للحجاج، فهو لا يمثّل شرطا لممارسة الحجاج الشائعة كالتي نقصدها هنا.

## 2. الحجاج بالقوّة

نتحدّث عن الحجاج بالقوّة لنشير إلى كلّ شكل من أشكال التهديد يرمي إلى الحصول على منفعة من المخاطب بالإكراه، من نحو قولك لي مهدّداً:

مالك أو حياتك!<sup>49</sup>

إنّ الصيغة «الحجاجيّة» لهذه العملية هي، بطبيعة الحال، قابلة للنقاش. فالسبب الوحيد الذي يدفعني إلى إعطاء مالي هو أنّني، إذا لم أعطه، فإنّني مهدّد بفقدان الحياة. فبنية حجّة القوّة هي إذن التالية:

- يهدّد المعارض ويمكن في آن واحد المعارض من الخلاص من هذا التهديد بجعله أمام مكروه أقلّ وطأة.
- يقوم المعارض بحساب سريع لمصالحه، ويقرّر قبول ضرر أقلّ ليجنب ضررا أكبر، وهذا لا يخلو من صبغة عقلانيّة.
- يسلم المعارض ماله للمعارض.

يجب أن يصدر الخطر الأعظم المسلّط على المعارض من التهديد الذي يُحدثه المعارض نفسه، لا أن يوجد قبل التفاعل. وذلك أنّه إذا وجد المعارض نفسه في خطر وطلب من أحد أن يمدّه بوسيلة يفلت بها منه مقابل مال فإنّه يجد نفسه في وضعية متحضرة متجمّعة في تبادل خدمات، [مثله في ذلك مثل من قال في نفسه]: إنني مريض وأعرف أنّه إن بذلت المال للطبيب فإنّه يشفيني.

### 3. الإتيان بالبيّنة

إنّ توّسم البراءة في المجال القضائيّ يلقي على قلم الادّعاء مسؤولية إقامة البيّنة؛ إنّ موضوع المداولة وإطارها يحدّدان، لكلّ لقاء حجاجيّ، ما هو الاقتراح المقبول، وما هو الاقتراح الذي يجب أن يفرض نفسه، ومن له مسؤولية الهجوم، ومن له مسؤولية الدفاع؟

إنّ الحجاج محافظ، فوجود مسؤولية الإتيان بالبيّنة هو تعبير عن مبدأ المقاومة السليّة في الحجاج، فواجب الإتيان بالبيّنة يفكّ التوازي بين أطراف التفاعل، والمحاجّ الذي عليه مسؤولية الإتيان بالحجّة ينوء كاهله بأعباء لا يمكن أحيانا التغلّب عليها.

إنَّ امتلاك المخدّرات والمتاجرة بها واستهلاكها أمور ممنوعة حالياً، وهذا العرف الشرعيّ لا يمكن أن يُغيّر بدون سبب، وعلى من يريد أن يجعل من استعمال ما للمخدّرات أمراً مشروعاً في بعض الحالات أن يبيّن أن الوضع سيتحسّن إذا ما تمّ تغيير الحالة الراهنة.

يمكن لمسؤولية الإدلاء بالبيّنة في نفس المسألة أن تتغير بتغيّر موقع التداول. لنفرض أنّنا نداول حول مثل هذا التشريع أمام جمهور مناصر لحرية استعمال المخدّرات، إذ ذاك تُلقى مسؤولية الإدلاء بالحجّة على المعارض لهذا الإجراء؛ ويمكن زيادة على ذلك، أن تتغيّر هذه المسؤولية حسب المسائل المتناولة في مختلف مراحل المداولة؛ فبعض الحجاجات تُعطل إذ كلا الطرفين يُلقي أمر الإتيان بالحجّة على خصمه.

بصفة عامّة ترجع مسؤولية الإتيان بالحجّة إلى الذي يعارض الرأي الغالب الذي شاع في مجتمعه أو جماعته.

#### 4 . الحجاج بالجهل

الحجاج بالجهل مرتبط بمسؤولية الإدلاء بالبيّنة

الموضوع: وجود الله.

هل يجب أن نُقيم الدليل على وجود الله أو عدم وجوده؟

المعارض: - ...

المعارض: - لم تقم الدليل على وجود / عدم وجود

الله: إنّه إذن موجود / غير موجود.

الدليل بغياب الدليل يبين أنه يمكن أن نُحاجَّ بواسطة غياب المعرفة.

قُتل الرئيس، ورغم عديد البحوث فإنه لم يتم إلقاء القبض على الجناة، المصالح السريّة هي التي اغتالته، وهؤلاء الناس لا يتركون أي أثر.

هذا الكاتب من الباطنيّة والدليل على ذلك أنه لا يوجد في أعماله أي أثر لذلك.

يتقاطع الحجاج بالجهل مع مسألة التدليل بالخلف، وهو سليم تماما.

إن كان أستاذًا فهو على علم بموضوعه وذلك إلى أن يتوفّر مزيد من المعلومات.

## 5. تمثيل خطاب الواحد في خطاب الآخر

يضع الحجاج الخطابات في مواجهة بعضها ببعض، وبما أن هذه تقام على تعارض فإنه يمكن أن «تتصلّب». وتمارس هذه الرقابة وهذا التكييف المتبادلان بواسطة الإحالة على الخطاب المعارض، واستحضار ألفاظ من هذا الخطاب، والكشف التأويلي عن الاستلزامات، والتلميح المتّسم بسخرية خفيّة أو غير المتّسم بها الخ. ويمثّل الحضور المهيكل لخطاب الواحد في خطاب الآخر أساس عدم التجانس الذي يطبع الخطاب الحجاجي الأشدّ في الظاهر صبغة حوارية أحادية.

يمكن أحيانا بناء تمثيل إجماليّ لخطاب الواحد في خطاب الآخر؛ وفي حالة الوضعيات السجالية الحادة حيث لا يفصل



الحجاج عن المحاجّ، فإنّ هذا الخطاب المُمثّل «يُلَقَى» على معارض وُضع لهذا الغرض، وتمّ تمثيله تمثيلاً يجعل من السير الطعن فيه طعناً شخصياً.

\* إنّ الخطاب الحجاجيّ يُدمج في صلبه خطابه المعاكس، ويَعْرِضه عرضاً يُظهر مواطن ضعفه ويجعله قابلاً للدحض، وتنشئ هذه الوضعية زمنيّة خطابيّة. لننطلق من تمثيل خطاب العارض في خطاب المعارض.

### المرحلة الأولى: خطاب العارض

المرحلة الثانية: إعادة بناء هذا الخطاب في خطاب المعارض.

يمكن أن تكون إعادة البناء هذه قد توقّعتها العارض من أوّل وهلة، وأتّه تمكّن من تجنّب الاعتراضات بمجرد صياغتها بنفسه، وعلى هذا النحو يلتهم خطابُ العارض خطابَ المعارض محاولاً الاستيلاء على كلماته.

المرحلة الثالثة: لا يجد العارضُ شخصه ولا مواقفه في المرأة التي تُنصّبُ أمامه بواسطة خطاب الآخر، فيردّ الفعل محاولاً أن يدحض بدوره هذا الدحض.

إنّك تُقَوِّلني أشياء لم أقلها قط؛ إنك تشوّه أقوالي،  
كُفّ عن نقلها نقلاً كاريكاتورياً !

لسنا أغوالاً، فنحن لنا أيضاً قلب حسّاس

يشرع العارض في خطاب صحيح، ويناقش الشواهد، ويدقّق ما قيل فعلاً، ويرفض التشويهات ويطالب بالاعتماد في كلّ نقد على استرجاع موضوعيّ للمواقف المتقدمة ويستج من ذلك ما

لاحظه من سوء نية المعارض، وينفي عن هذا النقد كل وجهة، إذ أن المواقف التي دحضت ليست موافقه، ولا فائدة في نصب فُرَاعة بهلوانية سهل بعد ذلك تقويضها.

المرحلة الرابعة: يؤول المعارض هذه التدقيقات بأنها توضيحات، أو يعبر عن ابتهاجه بما كان لنقده من أثر.

\* كثيرا ما تقف المقاربات المعيارية في المرحلة الثالثة، مرحلة المطالبة بالموضوعية، وهذه المطالبة ممكنة في حالات الحجاجات التعاويية؛ لكنّها لا تقبل التعميم لا فقط لأسباب التعاطف أو التنافر مع وجهة النظر هذه أو تلك، وإنما لأنّه، عندما يبلغ التوتر أقصاه، تعبّر لغات الأطراف عن منظورات لا حدّ لها، وهذه هي اللحظة التي يبرز فيها تبادل الاتهامات بسوء النية؛ وعندئذ لا ينفصل الفهم نفسه لخطاب الآخر عن ممارسة حقيقة لترجمة خائنة.

## الفصل الرابع عشر

### تقاسم الملفوظات

تولي النظريّات الكلاسيكيّة أهميّة مشروعة لـ«المُوافقات المسبقة» في الحجاج، فلا خلاف بلا اتّفاق، ولا يمكن الشروع في نقاش إن كنّا مختلفين في كلّ شيء؛ ومن منظور معياريّ للحجاج يُعتبر أنّ هذه الموافقات تقع على مجموعة من الملفوظات يقبلها الطرفان صراحة؛ والمسألة المطروحة من منظور وصف اختباريّ هي مسألة مختلف أنواع الضمنيّات والمقتضيات.

إنّ الصنف الأوّل من أصناف الضمنيّ الذي نسمّيه ضمنيّات الحجاج يتمثّل في حذف قانون العبور أو النتيجة، الممكن استخلاصهما مبدئيّا من السياق (الفقرة 1). يسمح الضمنيّ الحجاجيّ بإدخال عناصر قابلة للنقاش تُعتبر مفروغا منها، ويفرض تقاسم الملفوظات، وتتمثّل صيغته الكلاسيكيّة في أسئلة - أو إثباتات - متعدّدة (الفقرة 2)؛ ويحدّد الاتفاق بين المعارض والمعارض صيغ الحجاج التعاويّتيّة. وإذا ما اعتبرنا أنّ التحوار بين الطرفين يقع حسب أسلوب سوء التفاهم بالقضية تَنَقَّل من الاتفاق مع المعارض إلى الاتّفاقات مع الأنصار الممكنين

الذين هم الطرف الثالث. ويتمّ هذا على أساس ملفوظات «طائفيّة، باعتبار أنّ الحجاج يشتغل على أساس معتقدات جماعة كلام ومصالحها وقيمها (الفقرة 3).

## 1. ضمنيّ الحجاج

### أ. حجاج بلا «قانون عبور»

يمثّل هذا الحالة الأعمّ:

قال لي هذا بطرس، فأعتبره إذن أمرا واقعا.

المُضمّر هنا عبارة عامّة من قبيل «بطرس إنسان يوثق به»

يُسمّى أحيانا حجاج من هذا القبيل ضميرا حيث تغيب مقدّمة؛ ويمكن هنا أن تُحذف المقدّمة العامّة لأنّها «معروفة حقّ المعرفة» عند جميع المشاركين في التفاعل.

### ب. حجاج بلا نتيجة

هذه الحالة شائعة جدّا. يكفي أن يُعرض ملفوظ في سياق مسألة كالتي حدّدناها ليكتسب حكم الحجّة.

السؤال: هل يجب أن نتوقّف عن التدخين؟

العارض: لقد توقّف بطرس.

يُفهم هذا الملفوظ على أنّه حجّة ترمي إلى النتيجة «ينبغي أن نتوقّف»، هذا إذ كان بطرس شخصا مرموقا. لكنّه يمكن أن

يدعم النتيجة «لُواصل» إذا لم يكن بطرس، في نظر المتخاطبين، سوى «بابا كول»<sup>50</sup> ثاب إلى رشفه ويجب الاختلاف عنه.

• الملفوظ

الطقس بارد هنا !

يمكن أن يفهم على أنه طلب: «أغلق النافذة!»، أو تبرير لما أستاذ للقيام به من «تقوية التدفئة بعض الشيء». وقد نُوقشت شروط تأويل هذا النمط من تسلسل الملفوظات مناقشة واسعة في التداولية اللسانية.

• إذا كان الحجاج صريحا متكوّنًا من ملفوظين فإنه يسمّى حجاجا مفتوحا. فإذا كان النقاش يدور إذ ذاك حول محصول توت العُلق ولفت العارض النظر في الأثناء إلى حدوث الصقيع فاللغة واضحة والنوايا شفافة. أمّا إذا اكتفى بأن يقول: نزل الصقيع، يمكن للمخاطب أن يلقي الأسئلة التالية: لماذا قال هذا؟ إلى أي شيء يرمي؟ معنى هذا أنه توجد في حالة حجاج بلا نتيجة مناورة مختلة إذا لم يكن المخاطب واعيا بالنتيجة التي يقحمه فيها قبول المعطى.

## ج. حجاج بلا حجة

إنّها مبدئيًا مفارقة

تؤكد انتعاش الأعمال كيف يمكن أن يكون لهذا الملفوظ حكم النتيجة؟ فمن المستحيل أن نعيد بناء حجة تدعمه اعتمادا على قواعد لغوية صرف. في بعض أنماط

50 baba cool اسم أطلق باللغة الفرنسية الدارجة في السبعينات على الشخص الذي توخى ما للهيبى (hypies) من نمط عيش وقيم غير عيفة، واحترام للبيئة.

التفاعل الحجاجي حيث لا يتضمّن أيّ إثبات لمشروعيته الخاصة، يمكن مع ذلك أن نفترض أنّ كلّ ملفوظ وقائعيّ أو توجيهيّ من شأنه أن يكون موضوع حجاج - وهذا يؤوّل إلى القول بأنّ كلّ ملفوظ متّصف بالإفادة يمكن له، في هذا الإطار، أن يكون موضوع نظر.

## 2. الضمنيّ الحجاجيّ

إذا اقتضى محاجّ عنصرًا لا يحظى بالموافقة الصريحة من لدن الأطراف المشاركة معه، فإنّ هذا العنصر يُلغى في النقاش: ونحن هنا أمام إستراتيجية اقتضاء حجاجي.

### أ. مفهوم الاقتضاء

لننظر في الملفوظات التالية:

- 1- توقّف بطرس عن التدخين.
- 2- لم يتوقّف بطرس عن التدخين.
- 3- هل توقّف بطرس عن التدخين؟

يتضمّن كلّ ملفوظ منها الإثبات «كان بطرس سابقا يدخن» المكوّن لمقتضاها المشترك، فهذا الإثبات المقتضى في الملفوظ الإيجابي 1 يوجد من جديد في الملفوظ المنفيّ 2 والملفوظ الاستفهامي 3. ولا تتميّز هذه الملفوظات بعضها عن بعض إلا بمنطوقاتها المختلفة التي هي على التوالي: «لا يدخن بطرس الآن»، «بطرس يدخن الآن»، «هل يدخن بطرس الآن؟»، فالمحتوى المنطوق هو وحده المثبت، أو المنفيّ أو المستفهم عنه؛ وهكذا تكون دلالة الملفوظ باللغة الطبيعية متكوّنة من

عدّة طبقات، فدلاليتّه، خلافا للملفوظات المنطقيّة ذات الدلالة الساكنة، دلاليّة «ذات طبقات»، إذ يكمن الإثبات ما أن تختفي وراءه إثباتات كثيرة.

### ب. الاقتضاء الحجاجي

من وجهة نظر حجاجيّة تتمثل الخاصيّة الأساسيّة لعناصر المحتوى المقتضاة في أنّها عناصر مستقرّة ويُمكّن اعتبارها مكوّنة للإطار، أو لنقطة الانطلاق التي يريد فرضها في النقاش صاحب الملفوظ المتضمّن لهذه المقتضيات، من هنا تبرز نتيجة أساسيّة. لننظر في التسلسل المتولّد عن الملفوظ 1 في التحوار.

4- يا له من ملعون !. سيتمكّن إذن من المقامرة بمبلغ كبير في لعب البوكر.

يحترم هذا التسلسل إطار النقاش، فالتعليق الذي يأتي به حول المنطوق يمكّن من تقدّم النقاش. وعلى عكس ذلك فالتسلسلات الرافضة للمقتضيات أشدّ «عدوانيّة» من حيث أنّها تعوق تقدّم النقاش حسب ما يُعلن عنه كلام المخاطب.

5- ما هذا الكلام؟ فبطرس لم يدخّن قط !

إنّ الشكّ في المقتضى يكون أرفع تكلفة، وذلك أنّه، لما كان من المؤكّد قيام الحوار على «تفضيل الاتفاق»، فإنّ الذي يخرق الإطار المقترح برفضه المقتضيات يتعرّض للاتّهام بالعدوانيّة. يُحيل هذا النوع من المقاطع التي يتغيّر فيها موضوع النقاش وينتقل إلى المقتضيات على مسألة مسؤولية الإدلاء بالبيّنة (⇐ الفصل الثالث عشر، 3).

## ج- الأسئلة المتعدّدة

• اهتمت نظرية الحجاج خاصّة بما سمّته القياس المغالطي للأسئلة المتعدّدة التي يقترفها العارض وهو يسأل فجأة:

- هل توقّفت عن خيانة زوجتك؟

يتضمّن هذا السؤال الإثبات المقتضى المقدم على أنّه لا شكّ فيه، وأنّه معروف لدي الخاصّ والعام: «لقد خنت زوجتك». إنّ تأثير ذلك يختلف بحسب موقف الجمهور الفلسفيّ [في مسألة الخيانة الزوجيّة]، وهذا هو أيضا شأن الإثبات التالي:

لا تعد إلى القدح في سيلدافيا!

فهو يتضمّن إثباتا يُعتبر بديهيا: «لقد قدحت في سيلدافيا». ويمكن أن تتجمّع مستويات عديدة من المقتضيات كما هو الشأن في السؤال التالي:

لماذا اختلق بروسيائي وجود محتشدات في سيلدافيا؟

- الإثبات المقتضى: بروسيائي اختلق وجود محتشدات في سيلدافيا.

- إثبات مقتضى من مستوى ثان: لا وجود لمحتشدات في سيلدافيا.

إنّ الهدف المطلوب والذي لا بدّ أن يتحقّق هو إخراج المخاطب: حديث خرافة كلّ هذا، فهذه المحتشدات موجودة ولم اختلقها!...

• لنلاحظ أنّ صيغ التأكيد والمبالغة تكوّن وسائل بالغة لخلق الضمنيّ الحجاجيّ، فأن نقول في بنية نزاعية:



على المرء ألا يتنكر لمبادئه أبدا !  
فمعناه ضميتاً أن الخصم غير مبادئه.

### 3. الملفوظات الطائفية

#### أ. تكييف الملفوظ حسب الجمهور

أن نقول، كما تقول عن صواب مصنفات الحجاج، إنه يجب تكييف الخطاب حسب جمهور المستمعين الذي يرمي هذا الخطاب إلى إقناعه معناه القول بأنه يجب تأسيس الحجاج على الطرف الآخر الموجّه إليه هذا الحجاج، فسمّة الظرف المحفّز للخطاب مرسومة في هذا الأخير، ذلك ما يقتضيه الخطاب الحجاجي دائماً؛ ف«الخطابة هي ملكة اكتشاف نظريّ لما يمكن أن يكون صالحاً للإقناع في كل حالة» (أرسطو).

يمكن أن يُستجاب لهذه الضرورة بطريقة يحكم عليها المنطقيّون بأنّها قياس مغالطيّ. والأخلاقيّون بأنّها لا أخلاقيّة؛ وباعتبار أنّ الصدق يظلّ دائماً صادقا، فكلّ تكييف حسب المخاطب أو جمهور المستمعين لا يكون إلا خطابة خادعة، فلا بدّ من النظر إلى نتائج الحظر عندما يتعلّق الأمر بسؤال من نوع «هل يحب السماح بإماتة المرضى الميؤوس منهم»، أي سؤال يُتناول أمام جمهور من الممرّضات يعملن في قسم إنعاش، أو جمهور من متصرّفي المستشفيات، أو جمهور متقدمين في السنّ.

## ب. الحجاج على أساس القيم والمصالح

تُجمّع تحت اسم قوالب جاهزة مجموعة من الخطاطات الأجنبية التي يمكن أن تُبنى عليها حجج خاصة عن طريق الاستدلال المباشر أساساً:

الشباب مندفع، والشيوخ بخلاء، والجامعيون ضلع، والمتّسمون بالجمال حُقم، والعاشقون شاردون.

النساء حدسيات؛ سأعمل بالأحرى بنصائح شتال.

الإيطاليون هم العشاق اللاتينيون بأنّهم معنى الكلمة «سيكون عاشقاً رائعاً».

يمكن للحجاج انطلاقاً من القوالب الجاهزة أن يقع تحت طائلة الانتقادات الصائبة الموجهة إلى الآراء المسبقة.

• باعتبار أنّ الحجاج يسعى إلى التأثير في السلوك فإنّه يعتمد على مصالح الشخص الذي ينبغي إقناعه وعلى قيمه وذاتيته، وليست دوافع التأثير في الأشخاص معقّدة حتماً، وذلك باعتماد شديد على القوالب الجاهزة المتمثلة في السلطة والحبّ والمال:

سَلِّمَ التصاميم، وأسميكَ كونت (Comte) في مملكتي.

أيها الجنديّ الجميل، ألا تفضل مصاحبتي على الحراسة؟

هاك ألف دينار مقابل تصاميم القلعة!

تُكيّف هذه المصالح الكبرى حسب الأشخاص: فواحد يهتم بالطوايع البريديّة، وآخر يهتم بالسيّارات ... يتعلّق التكييف

## الحجاج

حسب الأشخاص بجمهور الطرف الآخر، ويركز الحجاج  
دواعيه على أهواء الذي يروم إقناعه.

اشترؤا غاسول «بلوسبار» فستبقى أيديكم ناعمة،  
وتتقرون مالكم، وتلمع أوانيكم، وتعينون من لا  
مأوى لهم !

هذا الحجاج تلتفي فيه دواع وجيهة تحمل على شراء المنتج  
المقترح.

إنّ النقد العقلانيّ النفعيّ للحجاج يقضي هذه الطرق الحجاجيّة  
المرتبطة بأشدّ القيم ذاتيّة وانفعاليّة، وأمثلتها كثيرة، لنستشهد  
بقيم الصداقة والعداوة.

أفعل هذا، استجابة له، فهو صديقك.

افعل هذا، فهو عدوك، فستزعجه.

- وبالحنة المازوشيّة

الأمر صحيح بما أنّه يؤلم.

إن من يقدح في لا يمكن أن يخطئ.

- والحنة المثيرة

من المؤسف أن ينزل المطر، فالطقس سيكون جميلاً !

- واستحضار راحة البال وإثارة الشفقة والتطير.

افعل ذلك لفائدة راحة بالك.

لا تحكم عليّ فلي ستة أطفال أعيلهم.

لا تفعل هذا فسيجلب لك النحس.

## ج - الحجاج القائم على معتقدات الطرف الآخر

هذا الشكل من الحجاج هو أساس الحجاج المركّز على الشخص والرامي إلى إبراز التناقض بين المرء ومعتقداته (← الفصل الخامس عشر)، ولا يتعلّق الأمر هنا بإقامة الدليل المطلق على صدق قضية، وإنّما ببيان أنّ هذه القضية مشروعة اعتباراً لنسق المعتقدات والقيم التي للمسامع المراد إقناعه. لننظر في أمر العارض حول المسألة التالية:

السؤال: هل يجب التدخّل في سيلدافيا ؟

يمكن للعارض أن يبيّن حجاجاً يستعمل ضروب الإثبات الموائية إن كانت تحظى بمواقفه الأطراف الأخرى:

أ - يمكن أن تنتشر اضطرابات سيلدافيا في كامل المنطقة

ب - هذا التوسّع يهدّد أمننا.

ج - يجب علينا أن نتدخّل إذا كان أمننا مهدّداً.

ويستتبع العارض اعتماداً على هذه المعطيات الثلاثة أنّه:

يجب علينا أن نتدخّل في سيلدافيا.

ويمكن للعارض، بطبيعة الحال، أن يقدّر في نفسه أنّ السبب الوجيه الوحيد للتدخّل في سيلدافيا هو أنّه قد وجدت أخيراً الفرصة المنتظرة لعقاب الكاكتانيين الذين يُعينون السيلدافيين خفية. لا وجود لأمر هين...

• لنلاحظ أنّنا نجد، عن طريق التماثل، تبريراً علمياً لهذه الطريقة اللا أخلاقية: نحن نعرف أنّ كلّ برهنة تقام بالنسبة إلى

نسق من المسلّمات لم يُدَلَّل عليها ومعتبرة صادقة. كذلك الأمر هنا إذ يمكن أن نعتبر أنّه لا يقع الاهتمام بصدق مقدّمات الحجاج في حدّ ذاته، وإنّما بمجرد بناء نتيجة انطلاقاً من هذه المعتقدات أو تلك مما يمكن للمحاج ألا يتقاسمه مع غيره.



## الفصل الخامس عشر

### الحجاج المركّز على الشخص

يقع الحجاج على الشخص (وهو الممّي حجاجا *ad hominem*) كلّما وقع الشكّ في صدق إثبات أو مشروعية سلوك، وأحيل لدحضهما على مميّزات سلبية خاصّة بالشخص الذي يدافع عنهما، وهكذا يُحوّل النقاش من المسألة إلى مناقشة [شخص] المحاجّ.

من هذا التحويل تشتقّ طرق دحض متنوّعة، وجدّ متّجة، سواء تعلّق الأمر بإبراز تناقض الخصم (الفقرة 1) أو المهاجمة الشخصية (الفقرة 2).

#### 1. إبراز التناقض

الطريقة الأولى للحجاج المركّز على الشخص تتمثل في إبراز تناقضه مع نفسه، فهذه طريقة حجاج قوية قوّة خاصّة، وقد حدّدها لو ك بقوله: إنّها تتمثل في «الضغط على إنسان بواسطة النتائج الناجمة عن مبادئه الخاصّة أو عمّا يوافق عليه هو نفسه». يمكن أن يُفهم لفظ مبدأ حسب المعنى الأخلاقيّ أو المعنى

الفكريّ؛ فالأمر يتعلّق في كلّ الحالات بحجاج في إطار نسق معتقدات الخصم وقيمه، قصد استخراج تناقض منها وإحداث نشاز بذلك.

### أ- إبراز تناقض الأقوال

هذه أبسط الحالات، وفيها يُبرز المعارض ما في إثبات المعارض من تناقض.

**السؤال:** المدة الرئاسيّة التي هي حاليا سبع سنوات، هل يجب تحديدها بخمس سنوات؟

**المعارض (رئيس سابق):** إنني أوافق على تحديدها بخمس سنوات.

**المعارض:** لكّتك في تصريح سابق، عندما كنت أنت نفسك رئيسا، قلت بأنّ المدة الحالية ضروريّة لرسوخ مؤسّساتنا.

يصدر إبراز التناقض عن تركيب من قبل المعارض لأقوال المعارض قصد إحداث أثر صدق، وسنرى ذلك بوضوح في الحالات التالية.

### ب- إبراز التناقض بين الأقوال والمعتقدات

لنعد إلى مسألة التدخّل في سيلدافيا (⇐ الفصل الرابع عشر).

**السؤال:** هل يجب التدخّل في سيلدافيا؟

لنأخذ هذه المرة بعين الاعتبار لا طرفا آخر وإنّما معارضا للتدخّل



**المعارض:** يجب عدم التدخل في سيلدافيا

لنفترض إضافة إلى هذا أنّ المعارض يقبل أو يُحمل على أن يقبل نفس المعطيات أ، ب، ج. السابقة<sup>51</sup>.

**اعتراض العارض:** لكّك تقرّ بأنّه يمكن للاضطرابات في سيلدافيا أن تنتشر في كامل المنطقة، وتوافق على أنّ هذا التوسّع يهدّد أمّتنا، وأنّه لا ينكر أحد أنّه يجب علينا أن نندخل إن كان أمننا مهدّداً؛ إذن يجب عليك أن تقبل أنّه يجب التدخل.

• إنّ العرض المبّسط لهذه الوضعية أمر مهمّ، وهو يبيّن كيف تنشأ فكرة الدراسة الصوريّة للتحوارات الحجاجيّة. يؤيّد المعارض هنا إذن لا - ق، وهي هنا «يجب عدم التدخل في سيلدافيا»، ومن ناحية أخرى فهو يقرّ بصدق القضايا {أ، ب، ج} (= الفصل الرابع عشر، 3، أ). من هذه القضايا المقبولة عند المعارض ومن مبادئ الاستنتاج المقبولة أيضاً يستنتج العارض أنّه «يجب التدخل في سيلدافيا»، أي لا (لا - ق).

هل يمكن أن نقول إنّّه يجب الآن على العارض أن يُقرّ بوجوب التدخل في سيلدافيا ؟ كلا، لا ريب في ذلك؛ فقد بيّن العارض بواسطة اعتراضه أنّه ليس بوسع المعارض أن يؤيّد في آن واحد {أ، ب، ج}؛ وما هو مطلوب من المعارض هو مجرد تغيير قضية أو أكثر من هذه القضايا، كأن يرفض مثلاً أنّه يمكن أن تنتشر اضطرابات سيلدافيا في كامل المنطقة،

51 أي في آخر الفصل 14.

والشيء الوحيد الذي يُطالب به المعارض هو أن يُغَيَّر، أو أن يوضح نسق معتقداته {أ، ب، ج، لا ق}.

### ج- إبراز التناقض بين الأقوال والأفعال

لننظر في التحاور التالي:

السؤال: هل يجب حظر الصيد ؟

العارض: نعم فالصيّادون يقتلون الحيوانات للمتعة !

المعارض: أفلا تأكل اللحم أنت ؟

يمكن أن ننسب إلى العارض الحجاج الموالي:

يجب حظر الصيد وإلغاؤه، فالصيّادون يقتلون للمتعة، وهذا أمر قبيح.

أمّا المعارض فهو يبيّن حجاجاً مركّزاً على الشخص يمكن صياغته كما يلي:

تقول إنّ قتل الحيوانات أمر قبيح، والحال أنّك تأكل اللحم وهو ما يقتضي قتل الحيوانات. إنّك تدين صنيع الصيادين، وهو عين ما تسمح به للجزّار، وفي هذا تناقض.

+ الدحض: يمكن للمعارض أن يردّ بأنّه يوجد فرق حاسم، فالصيّاد يقتل للمتعة، والجزّار يقتل للضرورة.

+ دحض الدحض: لا ضرورة لأكل اللحم، في حين أنّه توجد ضرورة للتمتّع.

## د- إبراز التناقض بين ضروب الإلزام والممارسات

يمكن للتناقض أن يُسجّل أيضا بين ما أطلب به الآخرين وألزمهم به أو أمنعهم منه، من ناحية وبين ما أفعله أو ما تنزع إليه أفعالي من ناحية أخرى. يوجد تناقض عندما أطلب من الآخرين عدم التدخين في حين أنني أدخن - اللهم إلا إذا أبطن المرء التناقض: لا تفعلوا ما أفعل.

يفترض في ثقافتنا أنّ الأفعال أفصح من الكلمات؛ فالإلزام في كلّ هذه الحالات يعتبر ملغى الغاء مُبرما، فليس للمتكلّم مصداقيّة، فهو لا يفعل ما يكون قُدوة.

نلاحظ أنّ حرف العطف هو هنا واسم تناقض حجاجي في الصيغ المختلفة التالية:

تدعي تعليم الحجاج للآخرين وأنت عاجز عن  
المحاجة!

ليس هو مرشدا زوجيا كفئا، فهو يتخاصم مع  
زوجته.

أيها الطبيب، ابدأ بمداواة نفسك.

## 2. المهاجمة الشخصية

إنّ هذا الصنف من الحجاج المركّز على الشخص يتمثل في مهاجمة شخص الخصم (ويسمّى أحيانا «هجومًا *ad personam*»<sup>52</sup>

52 مهاجمة الخصم من جهة شخصه.

للتمييز بينه وبين الهجوم (*ad hominem*)<sup>53</sup>، ومدار الأمر ههنا على مجرد السباب. إنّ أخلاقيات التفاعل، أو بعبارة أخرى قواعد الآداب، تحظر سبّ المخاطب حتّى ولو كان خصما. فليس لهذا مبدئيّا صلة بالحجاج. لكن ليست الأمور هنا أيضا يسيرة، فالسخرية الخفيّة بالخصم في غير محلّها، والتمليح إليه بعبارات سلبية يمكن أن يساهما في دفعه إلى فقدان هدوئه وتشويش خطابه وحمله على الركون إلى المجال الشخصي، فيميل الجمهور إذ ذاك إلى توخّي الحياد إزاء المتلاكمين.

لنتدبّر ما يلي من أوصاف سلبية موجّهة إلى الخصم.

**السؤال:** هل يجب التدخّل في سلديفيا ؟

**العارض:** يجب التدخّل في سيلديفيا !

**المعارض:**

1 - كُفّ عن الحماقات !

2 - مسكين أنت أيّها الغبيّ الذي خدعته الوسائط؛

3 - مسكين أنت يا غبيّ، كنت قبل ثمانية أيام عاجزا عن تحديد موقع سيلدافيا على الخارطة !

في الحالتين الأولى والثانية نفهم أنّ المعارض ليس موافقا على التدخّل، لكنّ الأمر في الحالة الثالثة غير واضح، فالمعارض يقدّم حجة تنفي مصداقية المخاطب في إطار النقاش الحاليّ على الأقلّ، ولا يخلو الهجوم من الوجهة.

53 مهاجمة الخصم من جهة أفعاله وأقواله

## الفصل السادس عشر

### حجارات السلطة

حجاج السلطة هو حجاج تأييد، فهو يدعم نتيجة ق في حجاج شكله التقليديّ هو التالي:

العارض: ق، لأنّ س يقول إنّ ق، ولأنّ س يمثل سلطة في هذا المجال.

يوجد حجاج سلطة عندما يقدّم العارض دليلاً يؤيد به إثباتاً ما ويتمثّل هذا الدليل في كونه صادراً عن متكلّم حجة يُعوّل عليه أو يلوذ به، فسبب اعتقاد ق (أو فعله) لا يُطلب إذن في صحّة ق، وملاءمته للكون كما هو أو كما ينبغي أن يكون، وإنّما هو في كونه مقبولاً من لدن شخص يضمن صحّته.

ينبغي التمييز بين حالتين: حالة السلطة التي تتجلّى مباشرة من قبل المخبر أو مصدر الإثباتات (الفقرة 1)، وحالة السلطة التي يستشهد بها المتكلّم لدعم أقواله (الفقرة 2). وكما هو الشأن في الحجاج المركّز على الشخص، فإنّ حجاج السلطة يركّز على صور المحاجّين؛ إنّ رهانات نقد حجة السلطة تتجاوز مجرد

تحديد شفرة للاستعمال السديد للخبرة وهو المظهر الأيسر تناولاً (الفقرة 3).

## 1. الحجة المتجلية

### أ. المصادر ذات المصادقية

السلطة في مثالنا لعبة ذات ثلاث شخصيات، لكنّها يمكن أن تُسند إلى المتكلم فينتقل إلى لعبة ذات شخصيتين اثنتين؛ ما الذي يعطي مصداقيةً لمتكلم معيّن؟ أول جواب عن هذا السؤال هو المظهر: فالرجل الأبيض، الطويل القامة في الأربعين من عمره، ذو الصوت الحميمي (وذلك أنجع أحياناً من صوت الأمر)، وذو النظر الثاقب، الذي يتكلم في إطار مهنيّ، هو أكثر مصداقيةً من المرأة القصيرة القامة، التي هي في سنّ الثلاثين، الحادة الصوت، المائلة النظرة والمتكلمة في إطار عاديّ؛ هذا ما يقال لنا على الأقلّ. إنّ دراسة الظواهر الضامنة لمصداقية الفرد تنتمي إلى علم النفس الاجتماعيّ، وتبيّن سبر الآراء كذلك أنّ جميع الوسائط (التلفزة، والصحف، والإذاعة) لا تُصدّق بنفس الدرجة. وتتميّز الوسائط التي من نفس النمط بعضها عن بعض بفروق في المصداقية، فتقابل الصحيفة ذات القيمة المرجعية بالجريدة التافهة. ويتعلّق الأمر هنا بظواهر السمعة.

### ب. المصادرة القائلة: المخاطب صادق

إنّ ما يُنسب إلى المخاطب من مصداقية يصدر عن التفاعلات اليومية العادية؛ فالمرء إذا طلب من جاره في القطار أن يدلّه على الوقت، فإنّه لا يلتمس منه حتماً أن يُطلعه على ساعته، فهو يصدق ما يقول.

وليس الأمر كذلك إذا تعلّق بموضوع ذي صبغة تنازعية، ففي هذا الضرب من السياقات وُجّه الانتقاد إلى حجاج السلطة من قبل لوك الذي تكلّم على حجاج مغالطيّ حول التواضع (*ad verecundiam*)، إذ يُنسب القياس المغالطيّ إلى المعارض الذي لا يجرؤ على مخالفة عارض مؤثّر لافتقاره إلى الشجاعة، ولمّا كان الصمت علامة الرضا اعتُبرت الإثباتات غير المعترض عليها صحيحة «بالغياب»؛ فالسلطة بالمعنى الذي نذهب إليه مرتبطة بإضفاء القيمة على قول ما، والتواضع مرتبط بصعوبة التعبير عن قول مناقض، وفي التفاعل تنشأ السلطة المغالطة عن الصمت الذي تفرضه الآداب في مواضع كان ينبغي أن تتغلّب فيها المقضيات العلميّة أو السياسيّة أو الأخلاقيّة على مقتضيات المجاملة.

## 2. السلطة المستشهد بها

### أ. متكلّمون معصومون أحياناً

من طرائق القول ما لا يحيد أبداً عن مرماه، ففي ما يخصّ السلطة المتجلّية فإنّ ما يقوله المتكلّمون حينئذ يُعتبر صادقاً؛ وفي ما يخصّ السلطة المستشهد بها فالاستشهاد الدقيق بأولئك المتكلّمين معناه الإدلاء بالقول الصادق.

• السلطة اللغويّة الصرف: كلّ متكلّم يقول لك «أعدك بأنّي سأتي» فإنّه وعد بالإتيان ولنا هنا ملفوظ إنجازيّ، وكلّ متكلّم لسان قلّد هذا الشكل من السلطة.

• السلطة المكتسبة بحكم الوضع: إذا أعلن رئيس الجلسة قائلاً: «فُتحت الجلسة»، فإنّ الجلسة تُفتح واقعياً، فلا يمكن

له أن يخطئ، ويُحدث قوله حالة الأشياء التي نصّ عليها، يُقلّد متكلّمو الملفوظات الإنجازيّة المؤسّساتيون سلطة مضبوطة تضع حدودها مؤسّسة اجتماعيّة.

• امتلاك المعلومة بطريقة خاصّة: يتمتّع المتكلّم أيضا بثقّة عريضة في ما يخصّ الملفوظات المعبرة عن مشاعره الباطنيّة، فإذا ما قال إنّ أسنانه تؤلمه، فإنّنا نعتبر مبدئيّا بأنّ أسنانه تؤلمه فعلا، فلا أحد يعرف ذلك أحسن منه.

• الشهادة: يطالب الشاهد أيضا بتصديق قوله على أساس موقعه الخاصّ من الحدث الذي يرويّه؛ ويعلمنا المؤرّخون ورجال القانون كيف تقدّر الشروط الخاصّة بمقبوليّة الشهادة.

## ب. المصادر المأذونة

• السلط البشريّة: إنّ المتكلّمين المعصومين أحيانا مأذونون لهذا حسب ظروف دقيقة، فكلّ فرد، باعتباره متكلّمًا عاديًا، له من السلطة ما يمنحه دوره الاجتماعيّ وإشعاعه الشخصيّ.

• ولما كانت سلطة الاختصاص التي للخبراء وأرباب الصناعات معدودة أيضا في أنواع السلط المذكورة وجب أن تُنزل منزلة خاصّة.

• لنذكر أخيرا السلطة المبنوثة للأطراف المتسلّطة المجهولة الهويّة، كحكمّة الأجداد أو الصينين والعادة والاتّفاق العام والجمهور في القطار الذي يصعد إليه المرء وهو يسير والعلم والرأي:

يعتبر أغلب الفرنسيين أنّ الوضع في تحسّن، فالوضع في تحسّن إذن.



### ج - ما قاتله السلطة حقاً

يعتمد الحجاج في الحالتين الأوليين على الاستشهاد بأقوال، ويفترض هذا الشكل من الحجاج خطاباً على درجة عالية من عدم التجانس يؤدّيه متكلمان اثنان أحدهما مستشهد يختفي وراء سلطة المتكلم المستشهد به، هذه هي على الأقلّ وضعية الانطلاق.

ما هي الشروط التي بموجبها يكون الملفوظ «س يقول/ قال إنّ ق صادق؟ هل قال س بالضبط ق، هل قال ق' التي تمثّل ق قولاً محاكياً لها لا يؤدّيها ضرورة بوفاء تام، نلمس هنا مشاكل الانتقال من الأسلوب المباشر إلى الأسلوب غير المباشر، ثمّ الخطاب المرويّ، ومشكلة العلاقة السجالية بين الأقوال. يمكن للخطاب رقم 2 أن يدعي أداء الملفوظ رقم 1 أداء دقيقاً من حيث الدلالة.

1 - قام الوزير بإعادة هيكلة مصالحه.

2 - قام الوزير بتنقية مصالحه.

لنفكّر مثلاً في الحالة التي قال فيها س إنّ م ، فإذا اعتبرنا أنّ نتيجة م هي ق، فهل يمكن أن نقول إنّ مخاطبي قال ق ، أم نسب إليه هذا القول؟ هل يُؤدّي الملفوظان 4 و 5 معنى 3 أداء أميناً:

1 - قال أبي إنّ الطقس سيكون جميلاً غداً.

2 - قال أبي إنّّه سيخرج للنزهة غداً.

3 - قال أبي إنّّه سيحصد المرجة غداً.

إنّ أقوال الخبراء لا تفلت حتماً من مثل هذا الأداء.

## د. المعنى الحافّ السلطويّ

إذا ضَمَّنت أقوالِي عبارات «تشكيّلة خطابيّة»، و«جهاز الدولة الإيديولوجيّة»، و«الآخر الكبير»، و«الأولويّة القوميّة» فإنّني أُوحي في الحال بارتباطاتي وتواطئي على التوالي مع فكر ميشال فوكو (Michel Foucault)، والنسق الماركسيّ الألتوسيري<sup>54</sup> وتَصوّر التحليل النفسيّ للعالم، وسياسة اليمين المتطرّف، فهذه العبارات تضيفي على الخطابات معاني حافّة تحظى بضرب من الصيت وتفقد تلك الحظوة.

إنّ هذه الأقوال تعالج باعتبارها مؤشرا يمكنني من معرفة «من أيّ موقع يتكلّم مخاطبي» وإذا كان لهذه الموقع تأثير فيّ، فذلك يدلّ بصفة ملموسة على تجلّ سلطويّ. لكنّ الزعم بوجود هذه السلطة يمكن نَفْيهِ، فليس للمتكلّم من قصد آخر سوى التعبير بدقّة عن فكرته التي تدّعي أنّها مقبولة لذاتها لا لسندها السلطويّ.

نرى أنّ آليّة المعنى الحافّ تمثل مرحلة على طريق استغلال السلطة: فخطاب المتكلّم المأذون يُورّأى تماما في خطاب المحاجّ، ويَمَحى في أقصى الحالات مصدرُ الخطاب الأوّل فلا يبقى منه إلا التلميح : فيصبح الخطاب متجانسا بعد أن كان غير متجانس؛ وتصبح السلطة الخارجيّة غير مرئيّة، ولم نَعُد في حضرة سلطة مستشهد بها، وإنّما نصبح في حضرة سلطة متجلّيّة وقع إبرازها بلا قول.

54 نسبة إلى لويس التوسار Louis Althusser (1919-1990)، فيلسوف فرنسي جَدّد دراسة الماركسية خاصة باقتباس عناصر من فن التحليل النفسيّ.

### 3. دحض حجّات السلطة

#### أ. مهاجمة السلطة

لا يُطرح مشكل الدحض حقًا بالنسبة إلى السلطة المتجلّية الداخلة في تكوين شخص المخاطب: فهي تختلط هنا بمهاجمة الشخص (= الفصل الخامس عشر).

إنّ الحجاج المركّز على الشخص وحجاج السلطة متناظران تمامًا، ففي الحالتين تقدّم صورة المحاجّ على أنّها حجة لتصديق حجة أو إبطالها.

يتمثل الدحض النموذجي لحجة السلطة في مهاجمة السلطة نفسها: ويتضمّن هذا الدحض إذن حجاجاً ضدّ الشخص وجيهاً كان أو غير وجيه كما رأينا (= الفصل الخامس عشر).

يوجد نسق من المعايير يُمكن من تقييم السلطة القائمة على الخبرة أو من نقدها، وتشتغل هذه المعايير اشتغالا داخليًا يتمثل أولاً في تعريف الكفاية ومجال الممارسة، ثمّ في تقييم ما يثبته خبير مُعيّن حسب نوع إنجازاته، ويتمّ السعي حالياً إلى وضع طرق مراقبة للخبراء متبادلة، وهذا ينقل السلطة من شخص إلى هيئة الخبراء، فنقد الخبرة مسألة فنيّة أساساً.

+ إنّ حجة السلطة مقصاة تماماً في الميادين العلميّة والتقنيّة، فهي تمثّل «برهاناً خارجيّاً». لكن يمكن أن يُستعمل العلم نفسه حجة:

السؤال : كم عمر الكون؟

**لعارض :** يقول لنا العلم إنّ قدم العالم يُقدّر بمليارات لسنوات.

**لمعارض:** تقول لنا الشريعة إنّّه قد مضى عليه 12345 سنة.

يحتج المعارض بالاعتماد على السلطة، أمّا العارض فإنّه لم يستعرض حتماً كامل سلسلة البراهين التي تفضي إلى نتيجة أقرّت على أساس سلطة العلم وحدها، فهو يحيل على أنّ البراهين متوفرة وأنّها موجودة في التصنيف المختصّة.

### ب. السلطة المقصورة على مجالها

يعتمد المرء حتماً في الحياة العاديّة على السلطة النسبيّة لميكانيكيّه أو طبيبه، ولمسألة حجّة السلطة رهانات في ميدان آخر تماماً هو ميدان «تجاوزات» السلطة الدغمائيّة.

إنّ السلطة الدغمائيّة لا تُناقش في الميدان الدينيّ. أذن البابا باستهلاك اللحم يوم الجمعة، يمكن لنا إذن أن نأكل اللحم يوم الجمعة؛ فالنتيجة صالحة تفرض نفسها على جميع أتباع الديانة الكاثوليكيّة، إذ أنّ البابا معصوم في مسائل العقيدة، وأن رفع الحظر الغذائيّ ينتمي إلى هذا الميدان، وهذه العصمة لا تنطبق إلا على ما يمسّ تعاليم الدين حيث تنطبق القاعدة الشهيرة المتضمّنة لجوهر حجّة السلطة: «*Roma locuta est*» «قالت روما قولتها» - وانتهى النقاش.

لكن عمّ تحدّثت روما؟ يجب تعيين الميادين ووضع الحدود؛ وإذا كانت الحالات القصوى لا تثير مشاكل، فالحالات بين بين تحمل على المساجلة.

باسم الإله / الوحي / النصّ المقدّس / النصّ المؤسّس  
/ التعاليم الشرعيّة.

يجب على الناس ألا يتناولوا الطعام الفلانيّ.

هذا الرسام ينتمي إلى النزعة الانحطاطيّة.

يجب تأميم / خصخصة المؤسّسات.

وُجد الكون منذ 12345.

الهتامة °Π تتفتّت إلى ضوين

ينزع النقد إلى إرجاع السلطة إلى مصادرها البشريّة أو  
المؤسّساتيّة أو العلميّة التي يمكن رصدها ومراقبتها؛ وقد مثّل  
ميدان صحّة هذه الحجّة ومازال يمثّل رهانا اجتماعيّا وثقافيّا  
عظيما. تاريخيّا مثّل نقد حجّة السلطة باسم حرّيّة التفكير سلاحا  
ضدّ السلط الدينيّة في الميادين العلميّة والسياسيّة والاجتماعيّة  
والأخلاقيّة.



## فهرس المصطلحات

| انجليزية        | فرنسية         | عربية           |
|-----------------|----------------|-----------------|
| opposition      | opposition     | اعتراض          |
| reasoning       | raisonnement   | برهنة           |
| demonstration   | démonstration  | برهنة استدلالية |
| following       | conséquent     | التالي          |
| focalization    | focalisation   | تبشير           |
| epideictic      | épideictique   | ثبتي            |
| dialogue        | dialogue       | تداول           |
| dispositio      | disposition    | ترتيب           |
| quantification  | quantification | تسوير           |
| analogy         | analogie       | تماثل           |
| paraphrase      | paraphrase     | جملة موازية     |
| modality, modus | modalité       | جهة             |
| argumentation   | argumentation  | حجاج            |
| monologue       | monologue      | حوار أحادي      |
| peroratio       | péroration     | خاتمة الخطبة    |
| rhetoric        | rhétorique     | خطابة / بلاغة   |

|                 |                |                |
|-----------------|----------------|----------------|
| schema, diagram | schéma         | خُطاطة         |
| connector       | connecteur     | رابط           |
| hologramme      | hologramme     | صورة كَلِيّة   |
| enthymeme       | enthymème      | ضمير           |
| invention       | invention      | ظفر بالحجّة    |
|                 | proposant      | عارض           |
| elocution       | élocution      | عبارة          |
| proposition     | proposition    | عرض / قضية     |
|                 | loi de passage | قانون العبور   |
| syllogism       | syllogisme     | قياس           |
| metadisçourse   | métadiscours   | ما وراء الخطاب |
| suite           | suite          | متتالية        |
| opposent        | opposant       | معارض          |
| antecedent      | antécédent     | المقدّم        |
| exordium        | exorde         | مقدّمة         |
| topic           | topos / topoï  | موضع / مواضع   |



## للمطالعة

### 1 - مصنفات مداخل

#### Ouvrages d'initiation

DECLERCQ G. *L'Art d'argumenter*, éditions universitaires, 1992.

GOVIERT T., A. *Practical Study of Argument*, Wadsworth, 1985.

OLÉRON P., *L'Argumentation*, PUF, 1983.

ROBRIEUX J.-J., *Eléments de rhétorique et d'argumentation*, Dunod, 1993.

VAN EEMEREN F. H. et GROOTENDORST R.: *Handbook of Argumentation Theory*, Foris, 1987.

### 2 - مصنفات مؤسسة للدراسات الحجاجية

#### Ouvrages fondateurs des études d'argumentation

ARISTOTE: *Rhétorique*, trad. fr. Les Belles Lettres, 1931.

– *Réfutations sophistiques*, trad. fr. Vrin, 1977.

– *Topiques*, trad. fr. Les Belles Lettres, 1967.

– *Rhétorique à Herennius*, trad. fr. Les Belles Lettres, 1989.

### 3 - دراسة حول السفسطائيين

#### Sur les sophistes

ROMILLY J. de, *Les Grands Sophistes dans l'Athènes de Périclès*, Bernard de Fallois, 1988.

#### 4. تاريخ الخطابة / البلاغة

##### **Histoire de la rhétorique**

Kenny G. A., *A History of Rhetoric*, Princeton University Press, vol. I, 1963, vol. II, 1972, vol. III, 1983.

#### 5. نظام الخطابة / البلاغة القديمة والكلاسيكية

##### **Système de la rhétorique ancienne et classique**

Lausberg H., *Handbuch der literarischen Rhetorik*, Max Hueber, 1960.

Patillon M., *éléments de rhétorique classique*, Nathan, 1989.

#### 6. معيدو التأسيس

##### **Les refondateurs**

Curtius E. R., *La Littérature européenne et le Moyen Age latin*, 1948, trad. fr. PUF, 1956.

Perelman C. et Olbrechts-Tyteca L., *Traité de l'argumentation* – La Nouvelle Rhétorique, 1958, 3è éd., éd. de l'Université de Bruxelles, 1976.

Perelman C., *L'Empire rhétorique*, Vrin, 1977.

Toulmin S. E., *Les Usages de l'argumentation*, 1958, trad. fr. PUF, 1994.

#### 7. تعميقا لمسائل المنطق والمنهجية في العلوم

##### **Pour approfondir les questions de logique et de méthode dans les sciences**

Hempel C. G., *éléments d'épistémologie*, trad. fr. Armand Colin, 1972.

Quine V. van O., *Méthodes de logique*, trad. fr. Armand Colin, 1973.

Follesdal D. Walloe L. et Elster J., *Rationale Argumentation*,  
De Gruyter, 1986.

## 8. الحجاج والفلسفة والمجتمع

### **Argumentation, philosophie, société**

Habermas J., *Théorie de l'agir communicationnel*, 1981, trad.  
fr. Fayard, 1987.

## 9. المنطق «غير الصوري»، والقياسات المغالطية

### **Logique «non formelle», paralogismes**

Hamblin C. L., *Fallacies*, Methuen, 1970.

Woods J. et Walton, D., *Critique de l'argumentation*, trad. fr.  
Kimé, 1992.

Blair J. A. et Johnson R. H., *Informal Logic*, Edgepress, 1980.

Van Eemeren F. H. et Grootendorst R., *Argumentation*,  
*Communication and Fallacies*, Lawrence Erlbaum, 1992.

## 10. الحجاج والعرفان

### **Argumentation, cognition**

Grize J.-B., *Logique et Langage*, Ophrys, 1990.

Vignaux G., *Le Discours, acteur du monde*, Ophrys, 1988.

## 11. الحجاج في اللغة

### **L'argumentation "dans la langue"**

Anscombe J.-C. et Ducrot O., *L'Argumentation dans la  
langue*, Mardaga, 1983.

Ducrot O., *Les Mots du discours*, Ed. de Minuit, 1980.

## 12. الحجاج والخطاب والتحاور

### **Argumentation, discours, dialogue**

Maingueneau, D., *Sémantique de la polémiques*, L'Age  
d'homme, 1983.

Moeschler J., *Argumentation et Conversation*, Hatier-Crédif, 1985.

Van Eemeren F. H., Grootendorst R., Jackson S. et Jacobs S., *Reconstructing Argumentative Discourse*, The University of Alabama Press, 1993.

Windisch U., *Le K.-O. verbal, L'Age d'homme*, 1987.

### 13. نظريات الحجج المشترك وتطبيقات

#### **Théories de l'argumentation commune, applications**

Van Eemeren F. H., Grootendorst R., Blair J. A. et Willard C. A. (sous la dir. De), *Proceedings of the [1986] Conference on Argumentation*, Foris, 1986, 3 vol.

Van Eemeren F. H., Grootendorst R., Blair J. A. et Willard C. A. (sous la dir. De), *Proceedings of the Second International Conference on Argumentation*, International Center for the Study of Argumentation, Amsterdam, 1991, 2 vol.

Kienpointner M., *Altagslogik*, Stuttgart, Fromman, 1992.

Plantin C., *Essais sur l'argumentation*, Kimé, 1990.

Toulmin S. E., Rieke R. et Janik A., *An Introduction to Reasoning*, New York, MacMillan, 1984.

Walton D. N., *Informal Logic. A Handbook for Critical Argumentation*, Cambridge, Cambridge University Press, 1989.

Willard C. A., *A Theory of Argumentation*, The University of Alabama Press, 1989.

### 14. مجلات

#### **Revues**

*Argumentation*

*Informal Logic*

*Philosophy and Rhetoric*

Voir aussi les travaux du Centre de recherches sémiologiques



## فهرس المواضیع

7 ..... مقدّمة الترجمة

9 ..... الفصل 1: ما يدين به الحجاج للسفسطائيين

1 7 ..... الفصل 2: دراسات الحجاج

27 ..... الفصل 3: لغة الحجاج وما وراء لغته

37 ..... الفصل 4: التحوّل والحوار الأحاديّ الحجاجيّان

..... الفصل 5 : قانون الصدق:

51 ..... الحجاجات والقياسات المغالطيّة

65 ..... الفصل 6 : نمطيّات الحجاجات المشتركة

7 1 ..... الفصل 7 : السببيّة والحجاج

8 3 ..... الفصل 8 : الحجاج والتماثل

93 ..... الفصل 9: الحجاج حول طبيعة الأشياء وتعريفها

101 ..... الفصل 10: موارد اللغة

107 ..... الفصل 11: التعيين وأخذ المواقف

117 ..... الفصل 12: الحجاج في اللغة

127 ..... الفصل 13: الحجاجات المرتبطة ببنية التفاعل

135 ..... الفصل 14: تقاسم الملفوظات

|          |                                    |
|----------|------------------------------------|
| 147..... | الفصل 15: الحجاج المركّز على الشخص |
| 153..... | الفصل 16: حجاجات السلطة            |
| 163..... | فهرس المصطلحات                     |
| 165..... | للمطالعة                           |
| 171..... | فهرس المواضيع                      |



الإنجاز الفني : حسين السعيد

الطباعة :

مطبعة المغرب للنشر

15 مكرر، نهج 8602 - المنطقة الصناعية الشرقية 1 - تونس قرطاج

الهاتف : 71 772 216 (+ 216) - الفاكس: 71 773 371 (+ 216)

البريد الإلكتروني: [commercial.ime&wanadoo.tn](mailto:commercial.ime&wanadoo.tn)

# الحجاج



لكل العلوم الإنسانية أساطيرها المؤسسة لها. ومن الأكيد أنّ أساطير الحجاج من أقدم الأساطير، إذ هي تعود إلى القرن الخامس ق.م. يحكى أنّ صقلية كان يحكمها طاغيتان انتزعا الأراضي [من أصحابها] لتوزيعها على جنودهما؛ ولما أطاحت سنة 467 ق.م. ثورة بالطغيان طالب المالكون باسترجاع أراضيهم المغتصبة، وأفضى ذلك إلى رفع قضايا لا نهاية لها. وهذه الظروف [حسب ما يقال] هي التي وضع فيها كوراكس (Corax) وتيزياس (Tisias) «طريقة معقلنة» للكلام أمام المحكمة، أي عبارة أخرى الرسالة الأولى في الحجاج.

هذه الحكاية قد تكون جديرة بالتصديق خاصة وأنها تنسب إلى الحجاج، حسب صدف غريبة، أصلاً موازياً لأصل الهندسة. وفعلاً فإن هيرودوت (القرن الخامس ق.م.) ينسب ابتكار هذا العلم إلى المصريين الذين كان عليهم أن يصلحوا كلّ سنة ما كانت تُحدثه فيضانات النيل من خراب. فالأمر يبدو في كلتا الحالتين متعلقاً بمسألة حدود أزالها النهر هنا والطاغية هناك. فكيف تتم إقامة حدود الممتلكات من جديد؟ الجواب هندسيّ بالنسبة إلى الكوارث الطبيعية، حجاجي بالنسبة إلى الكوارث الحضارية. وقد احتفظت هذه المقابلة بشيء مثاليّ في ما تضعه من توزيع للمهام.

## كريستيان بلانتان

مدير بحوث بالمركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا. عضو فريق البحث حول التفاعلات التواصلية بجامعة ليون II. من مؤلفاته: بحوث في الحجاج.

## عبد القادر المهيري

أستاذ متميّز، رئيس جامعة سابقاً، له من البحوث: نظريات ابن جني النحوية (بالفرنسية)، ونظرات في التراث اللغوي، وأعلام وآثار من التراث اللغوي، ومن الكلمة إلى الجملة، والنمر والتعلب لسهل بن هارون (تحقيق وترجمة إلى الفرنسية)، نقل إلى العربية: مدخل لفهم اللسانيات ومعجم تحليل الخطاب (بالاشتراك مع حمادي صمود).



9 789973 084262

10 د.ت.  
10 دولار أو ما يعادلها